

تاريخ الأدب العربي

في

العصر الجاهلي

السباعي السباعي
مؤلفه: د. أحمد السباعي

حق الطبع للمؤلف

٥١٣٥١ ١٩٣٢ م

مطبعة العلوم بشارع الخليل بحرين لاظ

فوائد الأئمة العرجي

في

المسألة الأولى

العصر الجاهلي

السباعي السباعي
مَدْرَسَ بَدَارِ الْعِلْمِ

حق الطبع للمؤلف

١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م

مطبعة العلوم بشارع الخليل بجنينة لاط

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

تاريخ الادب العربي

في عصر الجاهلي

ادب للعلماء

انه لحرى بنا قبل التعرض لدراسة أدب اللغة وتاريخه أن نعرض الكلمة
الأدب نعالجها مفردة غير منسوبة إلى اللغة معالجة تساردا منذ الطفولة إلى
أن ا دتمل معناها وصار إلى الحد الذي نعرفه لها الآن والذي عنده وقعت
تلك النسبة حتى اذا ما تعرضنا لمعنى الادب نكشف عنه ونبين الغرض منه كان
قولنا واقعا على أساس وألغينا ذلك المعنى سهل انأخذ على آذاننا وطيدا الاستقرار
في أذهاننا .

ولعل أول معنى عرف لكلمة الأدب هو وقوعها مصدرا للأدب يأدب
اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاما يحتفل به ويدعو إليه والاسم من ذلك
ذلك المأدبة على أن هذا الفعل استخدم من الباب نفسه ويغلب أن يكون ذلك
في الوقت عينه متعديا بمعنى دعا إلى مأدبته ومن ذلك قول طرفة بن العبد ويستشهد
به على المعنيين

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
يقول نحن في مشتاة أى الجذب ندعو الدعوة العامة وهى الجفلى فلا ترى
الآدب فينا أى صانع المأدبة أو الداعى اليها ينتقر في دعوته فيختص بها
فريقا بحب غيره والنقرى ضد الجفلى

« مكثت الكلمة على هذا المعنى بشعبتيه السابقتين العصر الجاهلى كله تقريبا
حتى اذا ما كان قبيل الاسلام تخطت متعددة ومن باب ضرب أيضا الى معنى
آخر هو التهذيب والرياضة فقل أدبه يأدبه بمعنى هذبه وثقفه كما قيل أدبه
بالتشديد على سبيل المبالغة والتكثير بمعنى علمه بل وبمعنى عافيه على إساءة
لان العقاب يحقق معنى الادب على هذا الوجه وهو كل رياضة محمودة يتخرج
بها الانسان في فضيلة من الفضائل ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لابنته هند
وهو يصف لها أبا سفيان بن حرب زوجا على غير تسمية » يؤدب أهله
ولا يؤدبونه « وقولها له في الجواب عن ذلك « انى لأخلاق هذا لوامقة
واني له لموافقة واني لا آخذته بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي »

ولما أن جاء الاسلام بتعاليمه الداعية الى مكارم الاخلاق انتشر هذا المعنى
وشاع وأكثر الناس استعماله أيما اكثار وبخاصة قول النبي صلى الله عليه وسلم
« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ثم توسعوا في كلمة الآدب فأطلقوها على كل
أمله أثر في التهذيب وحضوا لذلك على التأدب بالمأثور ولا سيما الشعر لما فيه
من الدعوة الى المكارم والتسابق الى المحامد فمن ذلك قول عمر بن الخطاب
لابنه « يا بنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك »
وقول معاوية « اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم فان فيه ما أثر أسلافكم
ومواضع ارشادكم » وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده « أدبهم برواية شعر
الاعشى فانه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره »

وبهذا انتقلت كلمة الأدب الى معنى الظرف في الخلق وحسن التناول للقول
وكلمة التأديب الى العمل في سبيل ذلك وطاوعتها كلمة التأديب فقول أدب
تأديب من باب كرم فعل السجاء والطباع فهو أدب إذا حسن أدبه ومن
ذلك قول سالم بن وابصة وهو إسلامي من قصيدة يحض فيها على مكارم
الاخلاق والتظرف في القول :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما أديبا ظريفا عاقلا ماجدا حرا

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محملا لرزته عذرا

ومن هنا بدأت كلمة الادب تنحرف عن معناها اللغوي الى هذا المعنى
الاصطلاحي ولما أخذ النجوم في تدوين بعض العلوم من دينية ولسانية آحر عهد
الدولة الاموية انحازت هذه الكلمة الى حذق علوم اللغة لما لها من الاثر في تقويم
اللسان واستكمال أداة البيان ثم كان تقدم العلوم وارتقاء المعارف أيام الدولة
العباسية بما حدث من تقسيم وتفصيل واستجد من ترجمة ونقل فجعل التأديب
مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فيها الأئمة من الرواة والعلماء وقصر الادب
على مآثور اللغة من نثر وشعر فعكف الناس على دراسته بهذا المعنى حتى وضعت
له كتب خاصة عرفت بكتب الادب كما عرف غيرها بكتب الفقه أو النحو
مثلا. وقد جارت كلمة الادب في ذلك كلمة الاديب فوسم بها كل من حذق
الادب على هذا الوجه وعرف من سائر العلوم ما هو للادب وسيلة أو للادب به
علاقة وله منه فائدة إذ لا يجمل بالاديب أن يكون من غير الادب عاظلا فان
الادب ثقافة خاصة لها حاجة وبها افتقار الى أن ترتكز على ثقافة عامة بدونها
يقول بها الم الادب وتذهب حلاه

قلنا إن الادب صار على عهد الدولة العباسية مهنة تصدى لها المؤدبون
وتصدرهم في ذلك الأئمة من الرواة والعلماء ولكنهم لم يتجاوزوا كثيرا

مأثور اللغة في روايته ونسبته على أيدي الرواة أو شرحه والافادة منه على أيدي الادباء فبقيت كتب الادب ما بين كتب رواية تخاص للمأثور مجردا وكتب دراية تبحث في معناه إجمالاً أو تفصيلاً على أن الأخيرة لم تخل من من ابحات خارجة عن معنى الادب ودى بنسبتها الى العلمية أخرى كأبحاث انوية من فقه اللغة وأخرى نحوية أو صرفية من علمي النحو والصرف وهكذا استمرت الابحات جامدة عند معنى الادب دون تاريخه الذي لا يتحقق غير التحليل والاستنباط وتتبع أطوار المأثور بأنواعه ضعة وارتفاعا وتلمس العلل لذلك والاسباب والانكباب على دراسة البينات من عامة وخاصة لمعرفة ما أنتجته في ذلك التاريخ من آثار. فتاريخ الادب ودو حياته يعتره ما يعترى حياة الامم في كل مظاهر التاريخ السياسي العام. نعم ان المتقدمين في ذلك العهد وبعده قد عالجوا أبحاثا هي من حياة الادب في الصميم كالموازنة بين شيء في عهدين أو بين شاعر وآخر جملة أو في قصيدتين وكما لكلام فيما طرأ على اللغة بالاختلاط الا أن ذلك لم يتناول في مجموعه كل ما لحياة الأءب من أبحاث كما لم ينسجم مرتبا في سلك النظام الذي ينبغي أن تكون عليه تلك الابحات. ثم لم يزل تاريخ الادب على تلك الحال من النقص في بعض وجوهه وانتشاره كله على غير شخصية قائمة في بطون الكتب الى أن هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرعون الكثير من فروعها حتى أوصلوه الى صورة متميزة قائمة فاذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب وكان لهم في ذلك طريقان إما دراسته موضوعا موضوعا ينتقلون بكل موضوع من عصر الى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل وإما دراسته عصرًا عصرًا يتناولون في كل عصر موضوعات الادب واحدا واحدا كما هي الحال في التاريخ السياسي العام وهذا هو المتبع والكثير

فعل المستشرقون ذلك وحيثما أنشئت دار العلوم على نظارة على مبارك باشا للمعارف المصرية اذ ذاك كي تنهض باللغة العربية في بلد انتهت اليه زعامة الناطقين بالاضداد كان لزاما أن يكون تاريخ الادب من أول ما يعنى بدراسته في هذا المعهد الجديد وفعلا كان وعهد بذلك أول الامر الى طائفة لعل أكثرهم غناء كما هو بلا شك أبقاهم أثرا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله صاحب المواهب الفتحية با كورة ما ألف بالعربية في هذا الباب لكن الشيخ طيب الله ثراه كأنه نظر في الادب الى أنه فن لا يستند الى علم أو أن دراسته بعيدا عن تاريخه تكون الاديب فنهج في مواهبه منهجا هو الى دراسة الادب أقرب منه الى دراسة تاريخه اذ لم يكده ينتهى على عجل منه في تصديره ببضعة أبحاث عامة على الطراز القديم حتى انتقل مسرعا الى المأثور يؤدب به بنيه تأديبا جعل دعائمه الاربع القصائد فالمحاكمات في الشعر ثم الرسائل فالخطب في النثر فشرح عشر قصائد أجرى بعدها عشر محاكمات ثم ساق من بعدهما عشر رسائل أتبعها مثلها من الخطب دون أن يتقيد في ذلك بعصر معين أو يجري على سنن خاص اذ كان مهيعه كما سبق الامام بطائفة من المأثور تشرح وتدرس كما يتطلب المعنى ويقتضى الاستطراد على أنه لا يبعد أن يكون رحمه الله قد سيق الى ما فعل لا مدفوعا بتلك النظرة الفنية الآتفة بل بما تملكه من حب القديم يجري على سننه ويهتدى بهديه وبخاصة اذ وجد طريقه معبدة أمامه بينا الجديد لا يزال مغلق السبل غير واضح الاعلام. ولهذا لم تكدراسة الادب تسند الى المرحوم حسن افندى توفيق أبدأ بناء دار العلوم الذين زاولوا التدريس حقبة في ألمانيا ما عهد الاستشراق عامة وفي العربية خاصة حتى أبرز لما صورة لتاريخ الادب هي على صغرها يصح أن تكون بحق النموذج الاول فيه ويجب على كل دارس له من بعده مهما أ بدع وفصل ان يكون موقفه منه موقف الحريرى في مقاماته من البدع حيث يقول على سبيل التمثيل

فلو قبل مبكاها بكيت صباة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكها فقلت الفضل المتقدم
الى هنا ولنا لفظة الى ما تقدم نوضح بها أمراً جديراً بالتوضيح

ذلك أن الادب أدخل في الفن منه الى العلم ولذا يوانى ذوى الطباع والاستعداد
أكثر مما يوانى ذوى الجد والاجتهاد وان لنا على ذلك لآية بينة هي النبوغ في
باب من أبوابه أو أكثر وقلماء يكون ذلك بالقليل من العمل يقوم به اناس
دون اناس يصلون ليلهم بنهارهم كدحا ونصبائهم هم لا يخرجون بصفة الاديب
فتراهم لا يزالون بعيدين عن أن يجودوا نثراً أو شعراً في أى باب يتخيرون
على أن ملكة الادب مع هذا لا تنهيا وسائلها ولا يتم نضجها بالاعتكاف على
المأثور وحده يحفظ ويروى بل لابد من درس تاريخه والاحتكام في ذلك الى
ما قعد من قواعد ووضع من نظم بحكم الظروف وتحت تأثير البيئات مع مساهرة
عوامل النمو وطبائع الارتقاء. واذا تكون دراسة تاريخ الأدب وسيلة الى تكوين
الأديب ويكون من وقف عند الوسيلة بعيدا عن الغاية جديراً باسم العالم
دون الأديب .

هذا وإذ قلنا ان المتبع في دراسة تاريخ الأدب لا ية أمة أن يساير به تاريخها
السياسى جنباً الى جنب فقد وجب اذا أن يكون أول عصر للأمة العربية
عصرها الجاهلى ومدته مائتا سنة على الأكثر قبل الاسلام غير أن كلمة عن
العرب في موطنها وأصلها وأقسامها وقبائلها وأيامها واجبة قبل ذلك
أن تكون .

العرب

موطنها - أصلها - أقسامها - مشهورات قبائلها - أيامها الكبرى
ذوات الاثر في الادب .

اولا - موطنها

موطن العرب الاول الذى منه درجوا فانتشروا فى الارض هو تلك الجزيرة
المنسوبة اليهم فى الجنوب الغربى من آسيا وهى جزيرة متسعة الارحاء مترامية
الاطراف يتصل بها من الغرب بحر القلزم المعروف بالبحر الاحمر ومن الشرق
بحر فارس وعمان ومن الجنوب بحر الهند وتضرب شمالا إلى الشام والعراق
فيدخل فيها جزء من كلتا باديتيهما وعد بعضهم منها أرض الجزيرة بين دجلة
والفرات لسكنى العرب قديما إياها

وهى تنقسم أربعة أقسام الحجاز واليمن ومع كل تهامة ثم العروض ونجد
ويكاد يكون ذلك التقسيم طبيعيا فان الحجاز وهو سلسلة جبالها العظيمة يمتد
فى الغرب منها على مقربة من البحر الاحمر من الجنوب إلى الشمال بين أرض
منخفضة غربية هي الهائم وأخرى مرتفعة شرقية هي النجود وفى نحو الثالث
من تلك السلسلة جنوبا تتفرع جبال تليث قليلا إلى الشمال الشرقى. فما إلى
الشمال منها الحجاز وتهامته. وما إلى الجنوب اليمن وتهامته غير أن اليمن تمتد على
ساحل بحر الهند جنوبا إلى بحر عمان شرقا. ثم ما إلى الشرق من الحجاز نجد إلى
بحر فارس وبادية العراق شرقا وإلى بادية الشام شمالا. أما الارض المعترضة بين

اليمن جنوبا ونجد غربا وشمالا وبحر فارس شرقا فهي العروض لا اعتراضها بين كل هذه الاقسام ماعدا الحجاز الذى ينفصل عنها بجزء من نجد يمتد من جنوب جبال سلمى الى شرق جبال تثليث
وهذه كلمة عن كل قسم تنتظم حاله الطبيعية وما كان عليه سياسيا
قبل الاسلام

١ - الحجاز .

إقليم طيب الهواء ليس به كسائر بلاد العرب نهر يجرى ولكن فيه العيون المتفجرة من الجبال المعتضدة بالسيول والامطار الممتدة من واد الى واد وعليها قراهم ونباتهم من حبوب وخضر وفواكه ورياحين. ومن حيوانه الخيل الجيدة والابل والضأن والمعز ومن وحوشه بقر الوحش وحمرة والغزلان والظباء والذئاب والضباع والثعالب والفهود والنمورة والاسود. أما طيوره فمنها الدجاج والحمام والرخم والنعام والحدأ والبوم والغربان
وللحجاز حاضرتان المدينة المنورة به ومكة المكرمة بتهامته

فمكة بالميم والباء ومن أسمائها أم القرى والبلد الامين وبها جميعا نطق القرآن الكريم وتسمى كذلك صلاح وقد ورد كثيرا فى الاشعار ولا سيما فى القديم. وهي واقعة فى بطن واد تحف به من جميع جهاته الجبال فأبو قبيس من الجنوب والشرق وحراء من الشرق والشمال وبه الغار الذى كان يتعبد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيقعان من الشمال والغرب وثور من الغرب والجنوب . وأول ما كانت سكنى مكة كانت لاعدائهم خلفهم عليها العالقة ولما عظم أمر قحطان نزلها ابنه جرهم واليه تنسب جرهم الثانية لاجرهم عاد

فلم يزل أمر مكة يدها حتى رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . وفي جرحهم
أصهر اسماعيل وبقى هناك فملكوه عليهم وانتقل الامر من بعده الى ابنه نابت
ولكن جرحهم أخذته ثانية ومنها انتقل الى خزاعة من الازد من قحطان أيضا
فلم يزل فيهم مفاتيح البيت يقومون بسداته حتى أعاده الى ذرية اسماعيل قصي
ابن كلاب ثم أنشأ قصي دار الندوة بمكة فكانت محل تشاور قريش وكان اليه
أمرهم حتى مات فانتقلت الرياسة الى ابنه عبد مناف ولكن بقيت سداة البيت
مع ابنه عبد الدار قيل لأنه هو الذي انطلق بمفاتيحه ففتحه لقريش حين أخذها
أبوه من خزاعة . ومن عبد مناف انتقلت الرياسة الى هاشم بن عبد مناف
فالى عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فتح مكة
بعد الاسلام فانتهدت اليه رياسة القديم والحديث . ومما يذكر هنا اقراره صلى الله
عليه وسلم بنى عبد الدار على سداة البيت كما كانت لهم من قبل

هذا وقد أ كسب مكة وضع البيت بها منذ عهد ابراهيم لدى العرب عامة حرمة
دونها كل حرمة وتقديسا ما أوغله في القلوب من تقديس فكان الملوك من حمير
وكندة ونخم وغسان يحجون اليها ويدينون لقريش بها ويكفي من تعظيمهم
إياها أن جعلوا حولها شقة حراما يحرم صيدها وقطع نباتها . ومما ضاعف في
عظمتها وفي حرمة البيت بها ما فعل الله بأصحاب الفيل وقد جاء أبرهة يقودهم
يريد هدم الكعبة وصرف العرب عنها الى حج القليس باليمن وهى كنيسة
ابتنها بصنعاء وبالغ في تجميلها فارسل الله عليه طيرا أبايل ترميهم بحجارة
من سجيل فجعلهم كهصف ما كول . ثم زادت تلك العظمة قدسا وجلالا بمجيء

الاسلام دعظما أمر هذا البيت وجاعلا الحج اليه فريضة على كل مسلم ومسلمة استطاعا اليه سبيلا

والمدينة هى الحاضرة الثانية وقد غلب عليها هذا الاسم واسمها القديم يثرب وبهما نطق القرآن الكريم وقد سماها الله تعالى الدار فى قوله (والذين تبوءوا الدار والايمان) وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة من حسن الرائحة أو تمام النقاء . وهى تقع فى مستو من الارض شماله جبل أحد وجنوبه جبل عير وشرقه البقيع وغربه العقيق . وهى قديمة العارية كمكة قيل أول من نزلها يثرب ابن عبيل من العالقة وبه سميت ثم خلف العالقة عليها قوم من بنى اسرائيل نزحوا اليها على عهد موسى بن عمران . وما زالوا بها حتى كان سيل العرم باليمن وتفرق من أهله كثير كان منهم الاوس والخزرج الذين امتدكوها على بنى اسرائيل فلم نزل بيدهم حتى هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكما شرف الله مكة بالحج الى البيت بعد الاسلام شرف المدينة بشواء جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ودمعه كثير من جلة الصحابة والانصار

هذا وبالحجاز غير حاضريه من المدن والقرى والادوية كثير

منها الطائف فى بطن من جبل غزوان شرق مكة وهى شديدة البرودة كثيرة الفاكة وأهلها من ثقيف وقيل ثقيف من بقايا ثمود وبهذا كان يعير الثقيفون وكان الحجاج من الذين يدفعون ذلك وهى احدي القريتين المذكورتين فى قوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فالقريتان مكة والطائف والرجلان الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود من الطائف . وبين مكة والطائف واد كثير النخل هو عكاظ وبه كانت تقوم سوق العرب الكلامية كما سيأتي بعد .

ومنها جدة فريضة مكة على ساحل بحر القلزم ميناء عظيمة كانت تذهب اليها

المراكب من مصر واليمن وهى ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب. «وهى المدينة التى خلقتها القصير»

ومنها خير إلى الشمال الشرقى من المدينة وهى مدينة قديمة ذات حصون كانت لبني عنيزة من اليهود قبل الاسلام والخير فى لغتهم الحصن ولبنى قريظة والنضير بعده وهى معروفة برداءة الهواء وكثرة الوباء وبجماها يضرب المثل قال الشاعر

وقفت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بخير صالب
وكانت كثيرة النخل يحمل تمرها الى الجهات القصوى وفى ذلك يقول
الشاعر : —

فانك واستبضاعك الشعر نحونا كستبضع تمر الى أرض خيرا
وعلى مقربة من خير الى الشمال الغربى وادى القري وبه الحجر نزل ثمود
فى القديم. وبين خير والمدينة قرية فذك
وفرضة المدينة الجار ومقامها تقوم ينبع الآن. وعلى مقربة منها إلى
الجنوب الشرقى ماء بدر الذى تنسب اليه الغزوة الكبرى بعد الاسلام.

٢ — اليمن

اليمن اقليم متسع النواحي كثير الخيرات تسمى أرضه الخضراء لكثرة
مزارعها ونخيلها وأشجارها يخرج من الحبوب والفاكهة ما تخرج المنطقة
المعتدلة والحارة وحيوانه حيوان الحجاز يزيد فى أهليه البقر والبغال والحمير
وفى برية الزراف والقردة فضلا على ما بأرضه من المعادن الكثيرة المتنوعة.
وهو ينقسم بضعة أقسام. فاليمن الاصلية على امتداد الحجاز جنوبا جبالا
وتهايم وإلى شمالها الشرقى نجران كما إلى جنوبها الغربى حضرموت الممتدة

طويلا على ساحل بحر الهند وعلى هذا الساحل يمتد الشجر فهرة فظفار ثم عمان المتصلة بساحل عمان وفارس . وفيما بين هذه الاقسام كلها غربا وجنوبا وشرقا والعروض شمالا توجد صحراء الاحقاف المعروفة بالربع الخالى وبها كان أصل منازل عاد ولا يعرف عنها الا ن سوي القليل.

وقد شهدت اليمن حضارة قديمة تضارع في جلالها وعظمتها أقدم الحضارات وأول ما عرف فيها الملك للعرب كان لعاد وهذه هى الطبقة العادية وخلفها القحطانيون وعظم ملـكهم فى الحميريين والتبابعة من بعدهم ومنهم بلقيس ولم يزل ملـكهم فى سلطان وعتاد حتى جاء السيل فتفرق كثير من شعوبهم فى سائر أنحاء الجزيرة وضعف أمر من بقى منهم باليمن وهن ثم تمكنت الحبشة من امتلاكها ثم الفرس من بعدها وبها كانوا الى الاسلام .

واليمن (شأن كل بلاد كثيرة الخيرات قديمة العمران) ملائى بالمدن التاريخية ذات الحصون المنيعة والقصور المنيفة والآثار التى تشهد على رقى عادى له فى التاريخ مقام كبير وقد بدأت المكشوفات الحديثة تخبر عما هو هنالك دفين . فحاضرتها صنعاء فى جنوب اليمن الاصلية وهى من أحسن البلاد سكنا وأطيبها هواء تكاد تحاكى دمشق فى كثرة مياهها وأشجارها وبظاهرها قصر غمدان الكثير ذكره فى الاشعار .

ومن مدنها مأرب الى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت من أجمل بلاد اليمن حسن تربة ولطف هواء وهى الموصوفة فى القرآن بالبلدة الطيبة وتسمى أيضاً سباً نسبة الى بانيها وبنو سباً هذا هم الذين أخبر القرآن أن كان لسكنهم فيها آية جنتان عن يمين وشمال فأعرضوا فارسل الله عليهم سيل العرم وبدلهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل

ومنها عدن وهى فرضتها على ساحل البحر المحيط وكانت أعظم المراسى

ومحط التجار من عامة الاقطار « الحجاز والحبشة والسند والهند وجزائر المحيط والصين »

٣ - العروض

والعروض على ما تقدم من موقعها تنقسم قسمين داخلي هو اليمامة وساحلى هو البحرين. فاليمامة أكثر بلاد العرب نخيلا ومنها فى القديم زرقاء اليمامة المضروب بها المثل فى حدة البصر وفى الحديث مسيلمة الكذاب وقصبتها اليمامة. والبحرين كثيرة النخل كذلك وفيها غيره الحب والفاكهة ومن مدنها الداخلية هجر المضروب بها المثل فى تصدير التمر ومن الساحلية القطيف. وكانت اليمامة فى القديم لجديس وطسم والبحرين لعاد وجاء من بعدهم فى الاثنيتين القحطانيون ومن كان بعدهم على اليمن الى أن جاء الاسلام إلا أن اليمامة وحدها آخر عهد الفرس كانت لبني حنيفة وآخرهم هوذة بن على الذى كتب اليه النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب الى الملوك

٤ - نجد

أما نجد فكالخجاز نباتا وحيوانا إلا أنها أحسن أرض فى جزيرة العرب هواء وأطيبها شميا ولذلك انبرى الشعراء قديما وحديثا يلهجون بذكرها ويتزنون برىا عطرها وشذاها قال الشاعر

أقول لصاحبى والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار
ألا يا حبذا تفحات نجد وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحى نجداً وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا بانصاف لهن ولا سرار

وهي تنقسم قسمين نجد السافلة وهي ما وليت العراق وبها صحراء الدهناء
ونجد العالية وهي ما ولي الحجاز وفيها أجبأ وسلمى جبلا طي^١ الوارد ذكرهما في
كثير من الاشعار ومنها أرض العالية التي كان يحميها كليب التغلبي ومن أجلها
قتل فنشبت حرب البسوس من بعده أعواما طويلة بين بكر وتغلب ابني وائل.
هذا ولا تعلم لنجد سكنى في القديم قبل ولد عدنان ومن خالطهم من
القحطانيين بعد السيل

مدن البوادي

ومن المدن العربية ببادية الشام تيماء بالغرب منها وكانت حاضرة طي^٢ وبها
الابلق الفرد حصن السموع بن عاديا ثم دومة الجندل بالوسط وكانت لبني
كلب وفيها كان التحكيم بين على ومعاوية.

ومنها ببادية العراق الحيرة مقام الملوك اللخمين وفيها الخورنق والسدير
المعروفان ثم الانبار وكان الاكاسرة يدخرون بها الحبوب كيلا تسوس .
ومنها بالجزيرة ديار بكر وريبعة ومضر الثلاث نسبة الى من سكنها من أبناء هؤلاء
على أنهم سكنوا معها غيرها هناك كالموصل ونصيبين كما نرح الى الجزيرة غيرهم
من القبائل الاخرى كالطائيين .

هذا ومما كان يدور على ألسنة الشعراء كثيرا ذكر الدارات والبرق كدارة
جلجل وبرقة نهمد يقصدون بالاولى كل أرض مستديرة بين جبال تكون ذات
سهولة ورياض وبالثانية ما كان فيها غلظ وبريق من حجارة ورمال تختلطان
بالطين . وقد ذكر صاحب القاموس أن البرق تنيف على المائة وعددها منسوبة
الى ما أضيفت اليه مرتبا على الحروف كما ذكر أن الدارات تنيف على المائة والعشر
وذكرها كلها كذلك بعد أن قال رحمه الله انها لم تجتمع لغيره مع بحمهم وتنقيهم
فجزاه الله خيرا .

ثانيا- أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها

العرب ذاك الجيل من الناس الذين كان لسانهم العربية وكانت سكناهم الاولى تلك الجزيرة المنسوبة اليهم سيان في ذلك الحضر سكان المدن والبدو الرحل الذين اختصو باسم الاعراب فأطاق اسم العرب لذلك علي الحضر أو كاد. والعرب أمة سامية ترجع في أصل نسبها الى سام بن نوح عليه السلام وقد اعتاد المؤرخون تقسيمها قسمين عربا بائدة وهم الذين بادت ذرايرهم وانقرضت تفاصيل أخبارهم قبل مجيئ الاسلام بقرون وأخرى باقية وهم الذين جاء الاسلام والجزيرة العربية تعج بأبنائهم وتضيق عن أخبارهم

فالعرب البائدة وقد يقال لهم العاربة أو العرباء يرجعون عن قرب إلى إرم ابن سام والمشهور من قبائلهم عاد بن عوص بن إرم وثمود بن جابر بن إرم وعبد ضخم وجديس ابنا إرم وطسم وعمليق ابنا لاوذ بن إرم.

فعاد كانت منازلهم الاولى بالاحقاف وهم الذين بعث الله اليهم نبيه هودا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح العقيم سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما كما أخبر القرآن وكانوا قد بلغوا من القوة واتخاذ الصانع لاخلود مبلغا عظيما ولذلك يقال للشيء يكون تديما وعظيما عادى نسبة اليهم

وثمود كانت منازلهم الحجر بوادي القرى وقد بعث الله اليهم نبيه صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كما جاء بذلك أيضا القرآن ولم يكونوا أقل من عاد قوة وعتادا فقد جابوا الصخر بالواد وكانوا ينتحون من الجبال بيوتا فارهين

وعبد ضخم كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك ويقال إنهم أول

من وضعوا الخط العربي كما يقال إنهم يرجعون الى ثمود ولذلك قد تنسب
ثقيف بالطائف الى بقايا ثمود التي كانت بعيدة عن مهلكهم
وجديس وطسم ويقال إنهما من عاد كانت دنارلهم باليمامة فأباد بعضهم
بعضا بالحرب في أخبار طويلة يذكرها القصاصون ليست محل ثقة واعتقاد
وعمليق كانت أمة عظيمة يضرب بها المثل في الطول وتفرقت منها شعوب
سكنت عمان والبحرين والحيجاز والعراق والجزيرة والشام ومصر ومنهم بالاخيرة
فراغة الرعاة وقد بادوا جميعا أو اختلفت شخصياتهم في أمم غيرهم
ومن القبائل التي تنسب إلى البائدة أيضا جرهم الاولى تميزا لها عن جرهم
الثانية وقد يكون التمييز بجرهم عاد وجرهم قحطان وكذلك أميم وجاسم ووباربل
ومدين أبناء مدين بن ابراهيم على بعض الاوال وهو ضعيف
والعرب الباقية قسما قحطانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة عند من وسهم
الاولى بالعاربة والعرباء كما يقال لهم العاربة أو العرباء عند من قصر على الاولى
لفظ البائدة وهم منسوبون إلى قحطان بن عابر بن شاخ بن أرغش بن سام .
وعدنانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة كالقحطانيين كما يقال لهم المستعربة
فقط عند من خص القحطانيين بالمتعربة وهم منسوبون إلى عدنان بن أدد بن
مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن اسماعيل بن ابراهيم
عليهما السلام وأبو ابراهيم آزر أو تارح بن أرغو بن ذالغ بن عابر بن شاخ
ابن أرغش بن سام وليس الى النسب فيما خالف عدنان طريق صحيح انما
المجمع عليه أن اسماعيل ابن ابراهيم وابراهيم يرجع الى سام فهذان الشعبان الباقيان
ساميان كالشعب البائد واذا تكون الامة العربية جماعة سامية من غير ما خلاف
فيلتقي العدنانيون بالقحطانيين في عابر والقحطانيون بالبائدة في سام

القحطانيون

ولد قحطان يعرب وجرهم فانتقل جرهم الى الحجاز كما سبق ولما جاء اسماعيل مكة خالطه بنوه بها واستوطنوها معه وهم جرهم الثانية وبقي يعرب باليمن فولد يشجب وولد يشجب سبأ وأنجب سبأ في اثنين حمير وكهلان واليهما ترجع جميع قبائل اليمن

فالى حمير ترجع قضاة والمشهور من أحيائها سبعة جرم ونهد وبقيتا باليمن وعذرة بجنوب الحجاز وجهينة وبلى شماله بالترتيب وبهراء شمالهما فيه وعلى شاطئ الفرات تم كلب بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام. والى عذرة ينسب العشق والتيم ومما يحكى فى هذا أنه قيل لرجل منهم دابال العشق يقتلكم يابنى عذرة فقال لان فينا عذرة وجالا وقيل لا آخر منهم دابال الرجل دنكم بموت فى هوى امرأة انما ذلك ضيف فيكم يابنى عذرة فقال ادا والله لو رأيت النواظر الدعيج تحتها المباسم الفالج فوقها الحواجب الشرج لا نأخذ هذا اللات والعزى وذكر بعض النسابة أن قضاة من العدانية والصحيح ما تقدم قضاة واسمه عمرو هو ابن دالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن دالك بن حمير واعل ذلك شبه عليهم من أن أم قضاة دات عنها دالك وهى حامل فيه فتزوجها دعد بن عدنان فولدت قضاة دلى فراشه فتبناه فنسب اليه ثم رحل قضاة الى اليمن فكان له ملك بالشحر ويقال ان له قبرا معروفا بجبل هناك

والى كهلان ترجع شعوب كثيرة كانوا يتداول الملك وبنى حمير باليمن ثم انفردت بنو حمير به وبقيت بطون كهلان دلى كثرتها تحت إمرتهم الى أن تقاصر ملك حمير فكانت الرياسة بالبادية لبني كهلان. وأشهر أحياء كهلان أحد عشر «١» طيء وهم أكثر أحياء اليمن بطونا فاليهم يرجع خمسة عشر بطنا نزع

منهم كثير الى الحجاز ونجد فغلبوا بنى أسد على أجبأ وسلمى فعرفا بجبلى طيء
 وخرج بنو أسد الى الشرق من ذلك والى بولان أحد بطون طيء ينسب
 الرجال الذين قيل فيهم إنهم أول من كتبوا بالخط العربى بعد العرب
 الاولى «٢» الازدوهم بطون كثيرة باليمن وعمان ومنهم خزاعة بمكة والاوز
 والخزرج بالمدينة والغسانيون آل جفنة بالشام «٣» ولهم منهم المناذرة ملوك الحيرة
 بالعراق «٤» كندة وكان لهم ملك قديم بحضرموت وآخر بعده بنجد ودومة
 وكان آخر ملوكه حجير والد امرئ القيس «٥» عائلة بشمال الشام . ثم مذحج
 وهمدان ومراد وجذام وأشعر وأنمار ولم تعرف لبطونهم فى القديم خارج
 اليمن ديار

وبعض النسابين يقولون إن أنمار اليمن أولاد أنمار بن نزار العدناني
 ولاكنهم أقاموا بها فنسبوا اليها والصحيح أنهم من اليمن وجاء اللبس من أنه
 كان لأنمار بن نزار بنت زوجها من أراش بن عمرو الكهلاني فولدت له ولدا
 أسماه على اسم جده لأمه. فأنمار اليمن إذا هم بنو أنمار بن أراش وأنمار الحجاز
 بنو أنمار بن نزار على أنه قيل إن أنمار بن نزار لا عقب له إلا هذه البنت
 والآنمار فى قحطان دون عدنان وفى هذا وجهه .

العدنانيون

ولد عدنان معدا وولد معد نزارا وأنجب نزار فى أنمار وإدور بيعة ومضر .
 فأنمار سبق القول فيه والراجح أنه لم يعقب الا فى تلك البنت التى زوجها من
 أراش الكهلاني كما سبق وأنمار لليمن دون الحجاز .
 وإيد فارق الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق وبها أقام ولم يزل النسب
 راجعاً إليه فى كل بنه اذ لم يصلوا الى كثرة على تطاول الايام .

وربيعة أعقب في ضبيعة بالحجاز ولم تكثر بطونها وفي أسد ربيعة وفيها
كثرة فمنها عزة نخير وجديلة ومن جديلة عبد القيس بتهامة نجد والبحرين
والزمر بالجزيرة ووائل ومن وائل تغلب والبحرين ونجد والحجاز والشام .
وبكر ومن بكر بنو حنيقة وبنو عجل باليمامة وبنو شيبان والبحرين ومنهم سدوس
ومضر أعقب في قيس عيلان والياس

ومن قيس عيلان جاءت الكثرة التي لم تبين معها بطون ربيعة فغلبت قيس
على سائر العدنانية حتي قيل قيس ويمن فمنها عدوان بالطائف رسايم بعالية نجد
قرب خيبر ومازن وباهلة باليمامة وغطفان بين جبلى طيء ووادي القرى الى
المدينة ومنها أشجع وعبس وذييان ومن ذبيان فزارة ومن فزارة بدر ومازن
الثانية ثم من قيس أيضا هوازن وهي أكثرها بطونا فمنها ثقيف على الاصح بالطائف
وبنو سعد بالحجاز وبنو جشم بالسروات وهي تلال تفصل بين نجد وتهامة من
البحرين الى الشام ثم بنو عامر باليمامة والبحرين ونجد والحجاز والشام والجزير
ومنهم على التسلسل بنو كلاب فبنو هلال فبنو نمر فبنو عقيل

أما الياس فاليه يرجع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعقب في قعدة وطابخة
ومدركة . فقمعة لم يشتهر عقبه وطابخة منه مزينة بشمال الحجاز وضبة بشمال نجد
وبالعراق وتميم بشرق نجد وشمالها ومن تميم العنبر وحنظلة ومن حنظلة يربوع ومن
يربوع العنبر الثانية . بقي مدركة ومنه هذيل بالطائف وخزيمة ومنها الهون بين مكة
والمدينة ومن الهون عضد والديش المعروفان بالقارة وكانوا رماة ومن خزيمة أيضا
أسد وفيها كاهل ودودان وكانوا بأجأ وسلمى الى أن أجلتهم عنها الى الشرق طيء كما
سبق ثم كنانة بمكة وتهامة الحجاز ومنها عامر وعمر وملك وملك وعبدمناة
والنضر ومن مالك فراس ومن عبدمناة غنار وبكر وليث والحارث ومدلج وضمرة أما
النضر وهو قریش فابنه مالك وابن مالك فهروا أبناء فهر غالب والحارث ومحارب وابنا

غالب لؤى والادرم وأبناء لؤى كعب وسعد وخزيمة وعامر وأبناء كعب مرة وعدي
وأبناء مرة كلاب وتيم ويقظة وأبناء كلاب قصي وزهرة وأبناء قصي عبد مناف
وعبد الدار وعبد العزي وأبناء عبد مناف هاشم عبد شمس ونوفل والمطلب وأبناء هاشم
عبد المطلب ونضلة وأسد وصيفي وأبو صيفي وأبناء عبد المطلب عبد الله والدر رسول
خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم والعباس والدا خلفاء العباسيين وأبو طالب والد أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب وحمزة وانقرض عقبه وأبو لهب والحارث أعقبا ولم
يعرف عقبهما ثم الزبير وعبد الكعبة وضراز وحجل وقثم والغيداق ولم يعقبوا

ثالثا - أيامها الكبرى ذوات الاثر في الادب

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم تتوافر لدي أمة ما أسباب التناحر والتقاتل والتنابد
والتطاحن بقدر ما توافرت لدى أمة العرب في جاهليتها وبخاصة الشعوب العدنانية
منها فقد انتشروا في أنحاء الجزيرة العربية يطلبون لما شيتهم كلاً ما هو ويتجعون لارتداد
مواقع الغيث أنحاءها فإذا ما أمحل بقبيلة دوطن طلبوا آخره يتزعونه دن غيرهم انزعاعا
بأسنة الرماح وظلمات السيوف وما أسرع ما يهرعون الى الغارة على عدوهم يلمهونهم
والى ظهور خيولهم يعتلونهم فيكون الطعن والنزال والضرب والقتال ويكفي أن تكون
غارة بين قبيلتين أسال يقوم له الحرب على قدم وساق فتبقى آماد او آجالا يشب أو ارباب
آونة أو أخرى طلبا للثأرات أو انتقاما بما لم يغصب وقد يستجير المطلب بقبيل يأي الا
أن ينصره قياما بحق الجوار ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه فيغزى لذلك ويقا تل
وتكون هناك حرب أخرى وغالبا ينضم فيها حليف حليف على أنه لم تخل الجزيرة
العربية من حروب حفز اليها الدفاع عن ملك أو الانتصار لمتبوع أو التعصب على
عمومه أو في خصوصه ولا نظن أن أيام العرب الكبرى الى غير ذلك ترجع فطلب
العيش والاخذ بالثأر وحماية الجار ودساعة الحليف ثم ما قفينا به من الدفاع عن الملك

ونصرة المتبوع والتعصب كل أولئك كان من أجله تقوم الحروب
وإذ سبق هنا أن العدائية كانت المسعر لهذه الحروب وتقدم في ذكر الانساب أن
كثرتها كانت تزخر بتغلب وبكر في ربيعة وبهوازن وغطفان وجشم وسليم في قيس
وبتميم في طابخة ثم بكنانة وقريش في مدركة فانا سائقون لذلك أشهر حروب
هذه القبائل مسبوقة ببعض ما كان بين نزار واليمن ومتلوة ببعض آخر هو
ما كان بين العرب والفرس مع ذكر بعض ما كان لليمن خلال ذلك لمناسبة

بين نزار واليمن

يوم الكلاب الثاني — بين مذحج وتميم وسببه أن تهما نزلت الكلاب وهو
ماء بين اليمن والبحرين طوله مسيرة يوم فعلمت مذحج فأغارت عليها فدارت الدائرة على
مذحج وكان رئيس تميم قيس بن عاصم ورئيس مذحج عبد يغوث وقد أسروا في أسره
هذا قال قصيدته المشهورة التي مطلعها :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما في اللوم خير ولا ليا
قالها يلوم قومه على هزيمتهم ويعتذر لنفسه عن أسره ذاكرا ما كان له قبل من
بلاء ومعددا بعض مفاخره الماضية كما لبى تميم مفاخره بهذا اليوم الذي نادى فيه
قيس وقد ولت مذحج الادبار يا آل تميم لا تقتلوا الا فارسا فان الرجال لكم
ثم جعل يرتجز ويقول :

لما تولوا عصبها هواربا أقسمت لا أظعن الا راكبا

إني وجدت الطعن فيهم صائبا

يوم خزازي — ويقال له خزاز جبل يتوسط الطريق بين مكة والنصرة
وهو من أقدم الايام بين نزار واليمن وكان رئيس نزار فيه على غلبة الظن كليب
التغلبى أو هو قد أبلى فيه بلاء بينا وهزمت اليمن فيه هزيمة نكراء

وبعده خرجت نزار عن سلطة اليمن وتفضت جياية تبا بعته بعد أن كان رسولهم يأتي
ومعه كاتب وطنفسة يجلس عليها فيأخذ من أموال نزار ما يشاء وليس بمعروف
عن هذا اليوم شعر يعاصره ولا كنهه ذكر على ألسنة الشعراء بعد كعمرو بن
كلثوم التغلبي حيث يقول :

ونحن غداة أوقد في خزازي رفدنا فوق رفد الرافدينا
فـكـنا الـايـمـنـين اذا التقينا وكان الـايـسـرين بنو أيينا
فصـالـو صـولـة فيـمـن يـلـيـهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالانهاب وبالنسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

حروب ربيعة

أهمها البسوس بين تغلب وبكر ابني وائل وذلك أن تغلب أخذت بعد
خزازي مكانا عليا في العرب وملك كليبها فعظم شأنه وعلا علوا كبيرا وبلغ من
كبريائه أن صار يحمي مواقع الغيث والوحش فيقول كلاً كذا في حمى
ووحش كذا في جوارى وحدث أن كانت البسوس بنت منقذ خالة جساس
ابن مرة عند ابن أختها هذا وكانت لها ناقة رأت أبل كليب ترد فوردت
معه فرماها كليب بسهم خرم ضرعها فولت وهويشخب لبنا فلما رأتها البسوس
قذفت خمارها عن رأسها وذهبت الى جساس صائحة واذل جاراها فأحسها ذلك
على ما كان من ظلم كليب وحسد بكر لتغلب فذهب الى كليب مسرعا فطعنه
فقصم صلبه وكان معه عمرو بن الحارث الشيباني فطعنه فقطع بطنه فوقع
يفحص برجله وقيل في مضرب المثل (تجاوزت شيئا وإلا حص) وهماءان
إن قاتله جساس إذ قال له كليب حين وقع أغثنى بشربة من ماء. وفي تصداق ذلك
يقول عمرو بن الاهتم

وان كلييا كان يظلم قومه فادركه مثل الذى تريان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمه تذكر ظلم الاهل أى أوان
وقال لجساس أغثنى بشربة والا فخير من رأيت مكاني
فقال تجاوزت الاحص وماءه وبطن شبيث وهو غير زوان

فهاجت بمقتل كليب حرب البسوس التى مكثت طويلا من الدهر بين تغلب
وبكر ابني وائل وكان المهلهل أخو كليب المعروف بالزير لما كان عليه من اللهو
واستدامة التحدث الى النساء حامل لوائها على بكر وشيخان ومن والاها لا يقنعه فى
ذلك مقنع ولا يقف فى القتال عند حد . يدل على ذلك أمثال قوله

أكثر قتلى بنى بكر برهم حتى بكيت وما يبكى لهم أحد
آليت بالله لا أرى بقتلهم حتى أبهرج بكرا أينما وجدوا

وقوله

قتلوا كليبا ثم قالوا أربعوا كذبوا ورب الحل والاحرام
حتى تبید قبائل وقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
وتقوم ربات الحدودر خواسرا يمسحن عرض ذوائب الايتام

وقوله

يال بكر أنشروا لى كليبا يال بكر أين أين الفرار
ولما أسرف مهلهل فى الدماء وكانت لتغلب على بكر أيام كثيرة كالذئاب
وعنيزة والحنو ثم واردات الذى قتل فيه بجير بن الحارث بن عباد أو ابن أخيه
وكان الحارث اعتزل تلك الحروب فلما بلغه قتل بجير هذا قال نعم القتل قتيل
أصلح بين ابني وائل وظن أن المهلهل أدرك به ثأر كليب وجعله له كفؤا
فقتل له إن مهلهل لما قتل بجيرا قال له « بؤشسع نعل كليب » فغضب الحارث وتولى

أمر بكر ولم يزل يقتل تغلب حتى تفرقت وهرب المهلهل وفي ذلك يقول الحارث
وكانت له فرس تدعى النعامه

قربا مربوط النعامه منى إن بيع الكريم بالشسع غالى
قربا مربوط النعامه منى لقحت حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليوم صالى
قرباها فى مقربات عجال عابسات يشن مثل السعالى
لابجير أغنى قتيلا ولا رهـ طكليب تراجروا عن ضلال
يابجير الخيرات لاصلح حتى نملاء البيد من رعوس الرجال

وكان اليوم الذى انتهى بتفرق تغلب وهرب مهلهل يوم قضية وهو يوم
تحلاق اللمم وبه تفخر بكر. ولما هرب مهلهل انتهى الى جنب وهم بطن من
مذحج وكانت معه ابنته فخطبوها فتمنع فاجبروه وأمهروها جلودا وفي ذلك
يقول متحسرا على عزفات

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الاكرمين من جشم
أنكحها فقدھا الاراقم فى جنب وكان الحباء من آدم
لو بأبانين جاء يخطبها زمل ما أنف خاطب بدم
ولمهلهل فى رثاء كليب وبكائه القصائد الطويله
منها التى مطلعها

أليتنا بذى حسم أنيرى اذا أنت انقضيت فلا تحورى
والتي مطلعها

بت لى بالانعمين طويلا أرقب النجم ساهرا أن يزولا
والتي يقول فيها

كليب لاخير فى الدنيا ومن فيها اذ أنت خليتها فيمن يخليها

ومما يذكّر من شعر العاطفة المتجيرة هنا شعر جلييلة أخت جسّاس وامرأة
كليب إذ قالت لها أخت كليب يا هذه اخرجي عن مأتمنا فانث أخت وارنا
وشقيقة قاتلنا وشيعتها بقولها حين خرجت «رحلة المعتدى وفراق الشاهت» فقالت
جلييلة وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها أفلا تقولين «نفرة الحياء
وخوف الاعتداء» ثم أنشأت تقول

يا بنّة الاقوام ان شئت فلا	تعجلي باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تيينت الذي	يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرىء ليمت على	شفق منها عليه فافعلى
جل عندى فعل جسّاس فيا	حسرتى عما انجلى أو ينجلي
فعل جسّاس على وجدى به	قاصم ظهري وهدن أجلى
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتى الاول
يانسائى دونكن اليوم قد	خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى	من ورائى ولظى من أسفلى
ليس من ييكى ليوميه كن	إنما ييكى ليوم مقبل
يشتفى المدرك بالثأر وفى	دركى ثارى ثكل المشكل
انى قاتلة مقتولة	ولعل الله أن يرتاح لى

بين ربيعة وغيرها

من أعرف الحروب بين ربيعة وغيرها ما كان بينها وبين تميم وذلك أن
بكرًا اعتادت أن تنتجع أرض تميم ترعى بها فاذا ما أرادت الرجوع لم تدع
عورة تصيبها ولا شيئًا تظفر به الا ا كتمسحته وكان ذلك منذ القديم فاجعت

تميم رأيها على مدافعة بكر وبهذا كانت لا تنطفئ بينهما نار حرب ولهذا كانت تميم تنضم الى تغلب على بكر في حرب البسوس ثم إن الغلبة اكثر الايام كانت لتميم وان كانت الايام حافلة بالمفاخر اكلا الطرفين فمن أيام بكر على تميم يوم الزورين وهما جملان أتت بهما تميم مقرونين مقيدين وقالوا لا نولى حتى يولى هذان «والبعير اذا قيد فهو زور أو زوير ماء حوذ من الزيار وهو ما يزر به البيطار الدابة» فاخبرت بكر رئيسها وهو عمرو بن قيس بن مسعود الاصم بذلك فقال وأنا زوير كم إن خشوها فخشوني وإن عقروها فاعقروني ثم التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا انهزمت فيه بنو تميم وقتل منهم أبو الرئيس النهشلي وغيره كثير وأخذت بكر الزورين وفي ذلك يقول الاغلب العجلي

جاءوا بزورهم وجئنا بالاصم شيخ لنا قد كان من عهد إرم
فكر بالسيف اذا الرمح انحطم كهمة الليث اذا ما الليث هم
كانت تميم معشرا ذوى كرم مخلصه من الغلاصم العصم
قد نفخوا لو ينفخون في فيحم وصبروا لو صبروا على أمم
اذ ركبت ضبة أعجاز النعم فلم تدع ساق لها ولا قدم
ويقول رجل من بنى سدوس

يا سلم إن تسالى عنا فلا كشف عند اللقاء ولسنا بالمقاريف
نحن الذين هزمننا يوم صبحنا جيش الزورين في جمع الاحاليف
ظلوا وظلنا نكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالمرد الغطاريف

ومن أيام تميم على بكر يوم بلقاء الحسن «والحسن جبل» وفيه قتل بسطام بن قيس سيد بنى شيان قتله عاصم بن خليفة الضبى فقال ابن غنمة الضبى يرثيه وكان

مجاورا اذ ذاك فى بنى شيبان وخاف أن يقتلوه

لا تم الارض ويل ما أجنث بحيث أضر بالحسن السبيل

يقسم ماله فينا ويدعو أبا الصهباء إذ جنح الاصيل

فان تجزع عليه بنو أبيه فقد فيجعوا وحل بهم جليل

بمطعام إذا الاشوال راحت الى الحجرات ليس لها فصيل

ومنها البيت المشهور يخاطبه فيه

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

ومما يعد من حروب ربيعة وان كان الباعث فيه لا يعدو الدفاع عن ملك

ما كان بين شرحبيل ومسلمة ابني الحارث بن عمرو الكندي وكان قد ملك

على بكر بن وائل برضاهم من قبل أحد التبابعة لما تقاطعت أرحامها وغلبتها

سفهاؤها فأحسن قيادها وغاب بها على كثير مما كان فى أيدي ملوك الحيرة

اللخمين وملوك الشام الغسانيين فلما مات اختلف ابنه هذان على الملك فكانت

بكر مع شرحبيل أكبر الاخوين وانضمت تغلب نكاية فى بكر الى مسلمة وكان

يوم الكلاب الاول وفيه قتل شرحبيل

بين اللخمين والغسانيين

وعلى ذكر الدفاع عن الملك وذكرا اللخمين والغسانيين نقول إن من الحروب

العربية الكثيرة الوقائع الشديدة الايام ما كان بين هذين الجذمين من اليمن لان

ضلع الغساسنة كان مع الروم وضلع اللخمين كان للفرس فسلطت كلتا الدولتين

تبيعها على الآخر ومن أشهر ما كان بينهما من أيام يوم حليمة وما يوم

حليمة بسر ارتفع فيه من العجاج ما غطى عين الشمس حتى ظهرت الكواكب

وكان بين الحارث بن أبي شمر الغساني والمنذر بن ماء السماء اللخمي وحليمة هذه ابنة الحارث ونسب اليوم اليها لانها أخرجت لابن بطال أبيها مكرنا به طيب تطيبوا منه والمركن الاجانة

بين الاوس والخزرج

وقل أن توجد حرب داخل الجزيرة لليمن غير ماتقدم الا ما كان بين الاوس والخزرج وهو قليل وأشهر أيامه يوم بغاث وهي مزرعة في ديار بني قريظة من اليهود وكانت لهم رهائن عند الخزرج فغدر بها عمرو بن النعمان البياض رئيسهم فاعانوا عليه حضير الكتائب رئيس الاوس وفيه انهزمت الخزرج واكن أصيب حضير بجراح مات متأثرا بها وفي ذلك يقول خفاف بن ندبة وكان له صديقا يرثيه

أتاني حديث فكذبتة وقيل خليلك في المرمس
فيا عين بكى حضير الندى حضير الكتائب والمجلس

حروب قيس

١ - بين عبس وذبيان

أهمها داحس والغبراء بين عبس وذبيان وكان سببها أن قيس بن زهير العبسي وحمل بن بدر الفزاري « وفزارة من ذبيان » تراهنا على مائة بعير يأخذها من يكون له سبق وكان داحس فحلا لزهير والغبراء حجر الحمل وكان في طرف الغاية شعاب كثيرة فأكمن فيها حمل فتيانا وأمرهم أن يردوا وجه داحس اذا جاء سابقا فلما برز داحس قال قيس « جرى المذكيات غلاء »

فذهبت مثلاً ولاكن لما شارف الغاية وثب الفتية في وجهه فردوه عنها فسبقت الغبراء وامتنع قيس أن يدفع الرهان لما كان من عمل الفتية وكاد الناس يسكنون لولا أن حذيفة أخا حمل بعث ابنه مالكا الى قيس يشدد في طلب الرهان فقتله قيس فاجتمع الناس واحتملوا ديتة مائة عشاء والكن حدث أن علم حذيفة بنزول مالك بن قيس بعيدا عن قومه فعدا عليه فقتله فقالت عبس مالك بمالك وردوا علينا مالنا فابي حذيفة فقال الربيع بن زياد العبسي وكان الذي احتمل الدية عن قيس ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكملة لبئسما فعلتم بقومكم قبلما الدية ورضيتم بها ثم غدرتم ردوا الدية فلم يسمعوا فنهض بعيس وحلفائها الى فزارة وذيان ورئيسهما حذيفة وبدأت حرب داحس التي مكثت طويلا حتى كاد ينقرض لها الطرفان وأيامها دامية كثيرة منها المريقب لعيس على فزارة وفيه قتل عنزة الفوارس ضمضم المري أبا حصين وهرم اللذين توعدا عنزة فقال فيهم من مهلقته

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم الشامي عرضي ولم أشتمهما والناذرين اذا لم آلقهما دمي إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم ومنها الهباءة لعيس على ذيان وفيه قتل حمل بن بدرو أخوه حذيفة ومثل بهما فعظم على غطفان قتلهم وكذا سائر قتلى الهباءة وتجمعت على عبس فعرفت عبس أن ليس لها مقام بارض غطفان فخرجوا الى اليمامة فنزلوا ببني حنيفة ثم غادروهم الى بني سعد فغدروا بهم ولم تزل الارض بعيس نابية وذيان ومن تحمس لنصرتهم من غطفان ينالون منهم حتي أصالح بينهما هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان وتحملا الديات والى ذلك يشير زهير وكان منقطعا

الى مدح هرم فى معلقته حيث يقول

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرهم
يمينا لنعم السیدان وجدتما على كل حال من سحیل ومبرم
تداركما عیسا وذیان بعدما تفانوا ودقوا بینهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرک السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعیدین فیها من عقوق ومأنم
عظیمین فی علیا معد هدیما ومن یستبج کنزا من المجد یعظم

الى آخر ما أفاض فى هذا الموضع . وفى قتلى الهباءة كثير من المراثى والاشعار
لما أصابت من سادة وما وقع فیها من تشف وتمثیل

٢ - بین هوازن و غطفان

ومن حروب قیس أيضا . ما كان بین هوازن و غطفان وذلك أن هوازن
كانت تؤدى إتاوة الى زهير بن جذيمة العبسى فأنته عجزوز من كلاب بسمن
فى نحى واعتذرت اليه وشكت سنین بتابعته فذاقه فلم یرض طعمه فدعس
المرأة بقوس فى يده فاستلقت على قفاها منكشفة فتألى خالد بن جعفر الكلابي
ليجعلن ذراعاه فى عنقه حتى يقتل أحدهما ثم استقل زهير عن قومه بابنيه ورقاء
والحارث فخرج خالد ومعه معاوية الاخيل جدليلى الاخيلية وأحس زهير
فركب فرسه القعساء ولكن معاوية وخالدا أدركاه فطعن معاوية القعساء
فقلبت زهيرا وخر خالد فوقه فرفع المغفر عن رأسه وضربه معاوية على مفرقه
ضربة بلغت الدماغ وانصرفا دون أن يغنى فیهما ضرب ابنى زهير الكمال
عدتهما وفى ذلك يقول خالد

بل كيف تكفروني هوازن بعدما أعتقتم فتـ والدوا أحرارا
وقتل ربهم زهيرا بعد ما جدع الانوف وأكثرا الاوتارا
وجعلت مهر بناتهم ودياتهم عقل الملوك هجائنا وبكارا

ثم حدث أن خالد بن جعفر هذا انتقص الحارث بن ظالم المري الدياني
وكان رئيس غطفان بعد زهير بقوله ألا تشكر يدي عندك أن قتلت عنك
سيد قومك زهيرا وتركك سيدهم فقال سأشكر وحقد عليه وقتله منصرفهما
من لدن الاسود بن المنذر أخى النعمان وكان الانتقص بمجلسه ثم هرب
فكانت لذلك أيام بين هوازن وغطفان وكان للحارث في هربه هذا أخبار طويلة
وأحاديث شتى ذات ضروب وألوان ثم كانت منيته على يد يزيد بن عمرو
الغساني وكان جارا له فقتل في قومه وهو مستجير فعفا عنه ثم قتل ثانية فلم
يتركه دون قصاص وقتله

ومما كان بين هوازن وغطفان غير هذه أيام تلت اغارة عبد الله بن الصمة
الجشمى على غطفان يوم اللوى واستياقه سرحهم ثم لحاق غطفان به وهو
مقيم ينتقع وقتلها إياه في وقعة جرح فيها أخوه دريد صاحب القصيدة التى
منها البيت

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح الاضحى الغد
والتي يرئى فيها عبدالله ويذكر ما كان من خلفه له فى الإقامة للانتقاع
وكان من أشد الايام بعد ذلك يوم الصلعاء وفيه قتل دريد هذا

٣ — بين سليم وغطفان

ومن حروب قيس أيضا ما كان بين غطفان وسليم على أثر نزاع قام
م ه أدب

بعكاز بين معاوية بن عمرو بن الشريد السلمى وهاشم بن حرملة العطفاني
تهياً معاوية بعده وغزا هاشماً على كره من أخيه صخر فقتل هاشماً وتتابعت
لذلك أيام لم يقفها الا إصابة صخر بطعنة اعتل بها طويلاً ثم مات وليس
يجعل أحد ما كان للخنساء أختها في هذا الباب من بكاء ورثاء .

بين قيس وعيرها

ولم تك الحروب في قيس قاصرة على بطونها بل كان بينها وبين غيرها
أيام أهمها : —

١ — بين عامر وتميم

فمنها ما كان بين عامر وتميم وسببه أن الحارث بن ظالم المري الذيباني
قاتل خالد بن جعفر الكلابي العامري على مامر آتفا التجأ الى معبد بن زرارة
التميمي شطرا من أيام هربه فأجاره وعلمت بذلك عامر فغزت بني تميم يوم
رحرحان وفيه أسر معبد وأبت عامر فيه الادية الملوك وأبى أخوه لقيط دفعها
عملاً بوصاة أبيهما زرارة حتى لا تذؤب بهم ذؤبان العرب ومات معبد في أسره
هزالاً لحبسه نفسه عن الطعام والشراب. ثم انضمت ذيبان لتميم وغزوا عامراً
وقد انضمت اليها عبس لما كان بين عبس وذيبان في داحس والغبراء فالتقى
الجمعان في شعب جبلة وهو من أعظم أيام العرب ولكن دارت الدائرة على تميم
أيضاً فقتل لقيط ولحق بمما من ذلك الضعف الكبير

٢ — بين سليم وكنانة

ومنها ما كان بين سليم وكنانة وسببه أن ربيعة بن مكدم من بني فراس بن

غنى وهو فارس الظعينة قتل ثلاثة فوارس من قيس أرادوا استلابها منه بوادى
الاحرم وهو الكنانة وكانوا مغيرين عليه مع دريد بن الصمة فاغارت سبعم
بعدئذ على كنانة يوم الكديد وفيه قتل ربيعة فتبع ذلك أيام من كنانة بنى
سليم كنانة الغلبة فيها دولة بين الطرفين . وفيها وفى يوم الظعينة كثير من
رائق الشعر وجليل الرثاء والفخر

٣ - بين هوازن وكنانة

ومنها ما كان بين هوازن وكنانة وأشهرها الفجار الرابع . وسببه أن
البراض بن قيس الكنانى وعروة الرحال رجل هوازن كانا عند النعمان وقد
جهز عير اللطيمة وهى إبل تحمل تجارة لكسرى الى أسواق العرب من البز
والطيب فقال من يجيرها فقال البراض أنا أجيرها على بنى كنانة فقال النعمان
ما أريد الا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة فقال عروة أكلب خليع يجيرها
لك أبيت اللعن أنا أجيرها فقال البراض أعلى بنى كنانة يا عروة قال وعلى
الناس كلهم فدفعها النعمان الى عروة وحنق عليه البراض فتبعه وهو لا يخشى منه
شيئا فقتله واستاق اللطيمة الى خير فقامت لذلك حرب بين هوازن وكنانة
تشيب لهولها الولدان وجعلت تتجدد كل عام فى ميعادها من الأشهر الحرم
حتى كانت خمسة أيام فى أربع سنين تداعى الناس بعدها الى السلم بدافع من
أنفسهم كأن العرب كانت تستعد لحدث جديد هو حلول الوفاق محل الخلاف
قبيل مجيء الاسلام الذى ألف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمته اخوانا .

أيام ذى قار بين العرب والفرس

وذو قار ماء قريب من البصرة وكان سببها أن كسرى غدر بالنعمان بن

المنذر وقتله في المدائن وكان النعمان قد أودع سلاحه هانيء بن قبيصة بن هانيء ابن مسعود الشيباني وجعل عنده ابنته هنداء وهي حرقاء فطلب كسرى السلاح فني هانيء فكانت الحرب وفيها تضامت العرب وانتصرت نصرا مبينا قال كان قد بعث « اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نصرنا ». ولأيام ذي قار في نفس كل عربي مقام يعتز به ولذلك أكرمت العرب جميعا من التفاخر بها والتباهي بذكرها وفيها كانت خطبة هانيء المذكور يحرض قومه بكرا على القتال ومنها

يا عشرين بكر هالك معذور خير من ناج فرور ان الحذر لا ينجي من القدر وان الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد

رابعاً - اثر تلك الايام في الادب

تقدمنا آنفاً بطائفة من أيام العرب ذكرنا بواعثها ووضعنا أسبابها لتكون تمهيدا لما نعالجه الآن من أثر تلك الايام في الادب . واذ كانت تلك البواعث وهذه الاسباب متصلة بعيشهم وان شئت فقل هي نفس عيشهم^(١) وكان الشعر ديوانهم الذي اليه يحتكمون وبه يفتخرون فقد فاض عليه من الايام ما لولاه لغاض معينه وصوح نبتة فلم نره كما نراه الآن تلك الروضة المعطار ذات الغصون الناضرة والاطيار الشادية

(حبيت الحرب الى نفوس العرب وهي طبيعة فيها صفة الشجاعة والنجدة والبأس والقوة بقدر ما بغضت اليهم الخور والضعف والجبن والهلع فكانوا في حضهم عليها واصطلائهم نارها وانتشائهم بلذذ الظفر فيها يقولون الشعر شعر

الحماسة والفخر فيصدر منهم جزل الالفاظ شريف المعاني نبيل المقاصد يحرك من القلوب الضعيفة ويهون الموت على الاعزة الاحياء ثم ينشئون الى بكاء تتلاهم وتعداد بلائهم تخليدا لما آثرهم وذكر اعم فاذا هذا شعر الوجدان الباكي والعاطفة الاليمة ممزوجة بما يخفف على الحى رزء المفقود ويجعله يأنف أن يموت حتف أنفه ويعد من النقيصة والعار ألا تكون منيته بطعنات الرماح وضربات السيوف وأى أمر غير هذا جعل أباتمام الطائى يسمى ما اختاره من شعرهم ديوان الحماسة ويجعل أكثر من نصفه خالصا لها ولما كان حتما مقضيا بعدها من الموت فالتأبين فالرثاء .

تأمل عيون الشعر الجاهلى حيث ترى العين قذافة لا ينقطع مأوها لا تنفى ترمى بكل مقطعة منه متماسكة الالفاظ متعاشقة المعانى تجدها من هذين البابين وهل لغيرهما ومنشؤها ذكر الفجيعة فى الميت واستخلاص الحياة للحى من الاتصال بقرارة النفوس وتحريك ما كمن فيها مثل ما لها اللهم لا . ثم يتصل بهذين البابين عن قرب التفاجر باجارة الجار واغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وعن بعد التمدح بقري الاضياف وايواء الطارقين وما لنا نبعد بالقرى والا يواء عن مواطن الشجاعة والاقدام وهما راجعان الى الكرم والكرم والشجاعة صنوان ومن أصل واحد ينبتان هو السماحة وما تقتضيه من بذل يقع فى المال فيكون سخاء وكرما ويرتفع الى أقصى غاية الجود تضحية بالنفس فيكون شجاعة واقداما . أفلا نحس اذن أن الشعر العربى اذا تجرد مما أثر فى هذه الناحية الواسعة الاطراف يصبح قاعا صفصفا أو يعدم أقل ما يصاب جواهر تاجه ووسائل عقوده فيذهب مأؤه ويضيع بهأؤه

ثم كان من عادة العرب فى الحروب أن يسيروا ليلا ليدهموا بالغايرة صباحا فكان من هذا سرى الليل وتعريسه وهول ذلك وخوفه وما اتصل بالسرى

من ذكر الليل نفسه في دجنته وظلمائه أو في سمائه بما يستطيع فيها من بدر أو يهدى من نجم وهذا منحى آخر من القول بين التأثير في اللغة والتأثر بالايام
وحق اذا هدأت الحرب ووضعت أوزارها كانت تفيض على اللغة بالممتع الكثير منها ففي الدعوة الى السلم ونفعها والتنكب عن الحرب وضررها من الخطب والوصايا والحكم والمواعظ وضرب الامثال والشواهد ما استنفد جملها وأخذ كثيرها ولو تتبعنا هذه الناحية نحصيلها مع ما اتصل بها من صلاح ووائم ومغارم ومحامل وديات يفرق فيها بين عربي صريح وآخر مقرف أو هجين لوجدنا الشطر الاكبر في النثر الجاهلي الى هذا ينسب كما نسب نظيره في الشعر الى الحماسة والرثاء وما تعلق بهما أو انشعب منها

(وان لنا أن نعتبر عناية العرب بأنسابها وحفظها لمفاخرها وأحسابها الى ذلك الحد الذي لم تعرفه أمة غيرها راجعة الى واعها بالحرب) أيضا حتى اذا مادهمت داهمة كان كل اعرف بقبيله وعشيرته وناصره ومولاه واذا ما طلب ثار كان معروف المحل ومن هو منه قريب أو بعيد فاذا ما حانت المفاخرة والمنافرة كانت الاصول التي تقع عليها معروفة غير مجهولة لا تطاوع عربيا أن يدعى غير أبوته أو ينتسب الى غير قومه ولذا كان الادعياء نورة في العرب محل ضعة منهم وتهجين

ثم ما نطن عناية العرب بالخيال تلك العناية البالغة مبالغها الدقيقة في تناولها الا منسوبة الفضل الى الايام : فما تستتب شجاعة الشجعان فترى منهم البلاء والغناء الا بالخيال عليها يكرون وبها يقتحمون وهل أدل على شدة التلازم بين الشجاعة والخيال من تسمية الرجل على الفرس فارسا فاذا ما كان على بغل او حمار قيل بغال وحمار وألا يكون أخذ الفرس من الفرس وهو المهر والكمثر والخيال من الخيلاء وهي الدل والعجب آية أخرى على هذا التلازم

واذن فما تبع تلك العناية من الاكثار الكثير في أسماء الخيل ونتاجها وعتقها وصفاتها مما ألفت فيه كتب ولم يسعه كتاب ثم ما كان من تفضيل العربي لجواده على نفسه في الزاد وجعله وإياه جزءا لا ينفصل منه في التفاخر بالاستبسال إن هو الا من الحرب نشأ ولا أجل القتال كان .

أوليس على أيام العرب وحروبها قامت صناعة السيوف والرماح وسائر عدد الحرب والقتال من مغافز ودروع ولجم وسروج وهذا ضرب آخر أفاض على اللغة الغنى والثراء مفردات وتراكيب وأخيلة وأوصاف . فالسيوف في صقاله ولمعانه وحدته ومضائه والرمح في اعتداله واستوائه وصلابته وملدانه ثم غيرها مما تقدم فيما لهما من صفات وأحوال وليس ذلك بالخفى المجهول قد فتح في اللغة فتحا مبينا ونماها نموا كبيرا .

على أن العرب لم تقف عند الخيل ووصفها والآلات ونعتها بل تلفتت الى ما حولها من حيوان غير أليف فاذا بالاسد قد امتلك عليها لبها وشغل منها قلبها وفؤادها فلم كان الشاغل دون غيره ألا إن ذلك لما جبل عليه العربي من الولع بالقتال وتمجيد الجرأة على المقارعة والنزال فأخذ يعنى بهذا الحيوان يبحث عن أحواله ويتشبه به في صفاته وأفعاله حتى أحله من نفسه محلا رفيعا وجعله على سائر الوحش سلطانا ومليكا وليس بخاف على أحد ماورد باللغة عن هذا الحيوان من أسماء ونعوت وما قذفت به ألسن الحمية والنجدة عنه من آيات اكبار واجلال . ثم لم يعدم غيره من الحيوان الضارى أن يتال من ذلك بقدر ضراوته كالنمورة والفهود والضباع والذئاب وان كان فيما اختص به الاسد دونها من نبيل وكرم وعلو وترفع فوق ما تقدم عنه من قوة وجرأة ما جعله المقصود لدى العرب بالتجلة والاعظام والمتشبه به في كثير من الصفات والخلال وصرهم عن غيره الى القول فيه اكثر ما يقولون

وهل أقدمت العرب على تسمية قبائلها وبطونها وأولادها وفتيانها بالكريه من أسماء الحيوان كأسد وفهد ونمر وذئب ثم من غير الحيوان كحجر وصخر وجشم وعبس الا محبة لتلك الاسماء وتفاؤلا لبنيتهم أن يكونوا من صفات ذواتها على كمال فيحموا الحوزة ويدافعوا عن العشيرة ويكونوا للحروب أهلا ولمقارعة الابطال كفاء .

وهل اذ انطوى بساط الجاهلية بما كان عليه من شجار وعراك واشتباك وقتال بما قد نشر الاسلام من لواء سلامه ومد من ظل عدله ووئامه انقطع مدد الايام للادب أو وقفت حركتها الدافعة له كلا فقد مكثت أيام الجاهلية الاولى مددا للشعراء غير مقطوع ومفاخر يبتعثون ثرائها غير خلق ولا مجدوع نقرأ ذلك مستجيدين ولا كآثره حامدين مستكثرين من لدن صدر الاسلام في مفاخر الفرزدق وجريير الى حيث قطع العصر العباسي عهد شبابه وصباه على أيام البيهقي وأبي تمام .

واذن فهذه كلمة انتظمت أثر الايام في الادب وما كان لها عليه من فضل ونماء وهي على ما ترى تتناول الشعر والنثر كليهما أمثلة لها وشواهد عليها الا ما قل منهما ومن ثم يسوغ لنا أن نقول غير مباغين ولا متجنيين إن أيام العرب وأدب العرب يكادان يكونان شيئا واحدا لا شيئين ولذا كان الحض على تعرف أيامهم في القديم بمثابة الوصاة على تعلم آدابهم لالبس في ذلك ولا كبير افتراق.

اللغة

نشأة اللغات وتعدددها — اللغات السامية وأصل العربية
طرق نمو العربية وخصائصها — اختلاف لهجاتها
وعوامل تهذيبها

أولا — نشأة اللغات وتعدددها

احتاج الانسان إلى التفاهم وكان التفاهم بالالفاظ ليسرها وعمومها أفيد
أنواع الدلالات فاستعملها فنشأت اللغات ولكن في كيفية هذه النشأة خلافا
طويلا دب بين العلماء الأقدمين ولا زال جاريا منهم إلى المحدثين
فعباد بن سليمان الصيمري يقول إن دلالة الألفاظ على معانيها ذاتية
لا توقيف فيها ولا تواضع مستدلا على ذلك بوجود مناسبة بين كثير من الالفاظ
ومعانيها وبأنه لولا هذه العلاقة الذاتية لكان اختيار لفظ دون آخر ترجيحا
بلا مرجح . وهذا القول مردود في جملته وتفصيله وإلا لزم أن يفهم الانسان
اللغة بل اللغات جميعا دون تعليم وهذا مالا يكون . أما تلك المناسبة فمع ثبوتها
لبعض الألفاظ وخصوصا الصوتي منها لا تنهض دليلا لانعدامها في الأعم
الأغلب ويكفي أن يكون مجرد خطوط اللفظ دون غيره على الذهن مرجحا
له ودافعا إلى اختياره على أن تلك المناسبة لو كانت الأساس لما كان في لغة
من اللغات لفظ يستعمل في المعنى وضده كما هو مشاهد وكثير .

وأبو الحسن الأشعري يقول انها توقيفية أتت بوحي من الله سبحانه وتعالى

وتبعه في ذلك أبو علي الفارسي محتجا بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها »
ولكن الآية ليست بالدليل القاطع في الموضوع إذ يجوز أن يكون المراد
بالأسماء أسماء الملائكة أو بالتعليم الاقدار على المواضعة لا التعليم المباشر.

والذي عليه الجمهور وبه قال ابن جني في خصائصه هو أن اللغة تواضع
واصطلاح وجدت المناسبة أم لم توجد تحقق القصد في التواضع أم جاء عفوا
بالارتجال . وأن الإلهام من الله سبحانه وتعالى بمعنى الأقدار ثابت في الحالين
وبيان ذلك أن الحيوان يعبر عن وجدانه بأصوات تختلف باختلاف مطالبه كما
نراه ولما كان الإنسان لا بد أن يفضل في ذلك لما فيه من قوة الإدراك ومطاوعة
الصوت فقد استغل مطاوعة الصوت في تنويع الحروف وقوة الإدراك في
ارتجال بعض الألفاظ فكان بهاتين القوتين عندما يريد أن يفهم أو يستفهم
يصيح لغيره بصوت محكي أو مرتجل يتوسم فيه الإفصاح عما يريد مضيفا إليه
ما يزيده إيضاحا من إشارة حسية أو قرينة حالية فاذا ما فهم غرضه منه كرره
وكرره حتى يستقل بأداء معناه دون حاجة إلى إشارة أو قرينة وعلى هذا
النحو منه ومن غيره تكونت النواة الأولى للتفاهم الضروري ثم أخذت تتسع
وتنمو بما يتفقون عليه من غير تعمل ولا قصد حتى كانت لغة الإنسان الأولى.
وبقياس نشأة هذا الإنسان على ما هو مشاهد في نشأة الطفل وما هو معروف
عن لغات الشعوب الهمجية التي لا تزال في حدود الطفولة يمكن القول بأن
نطقه كان أولا بالأصوات الدالة على الانفعالات النفسية أو على محاكاة الطبيعة
ثم بالألفاظ المسمي بها بعض المحسوسات حوله وتلا ذلك النطق بالمصادر ثم
الأفعال وأسبقها المضارع وهكذا انتقل التدرج إلى أسماء الإشارة والضمائر
والموصولات ثم المشتقات وبعد ذلك كله جاءت الحروف .

تلك هى نشأة اللغة أما كيف تعددت إلى لغات فمنشأ ذلك حتما هجرة طوائف الانسان وابتعاد بعضها عن بعض حيث رأت كل طائفة فى بيئتها ما لم يره غيرها فاضطرت إلى وضع كلمات لم يضطر اليها سواها . ثم ان عدم اتفاق الخواطر على فرض تماثل البيئة فى بعض الاحيان جعل الخلاف واقعا لا محالة فى التعبير ولو إلى درجة غير بعيدة . فالى البيئة والخواطر معا يرجع تعدد اللغات ومن هنا كانت تتقارب اللغتان وتتباعدان قربا وبعدا كما كانتا قد تختلفان عن قرب أو تشابهان على بعد ويغلب أن يكون ذلك قد حدث قبل نوح عليه السلام ولكن حادثة الطوفان عفت على ماسبقها وجعلت الناس لا يعرفون تعدد اللغات إلا بعدها فنسبوا أصولها إلى أبنائه الثلاثة حام ويافث وسام كما فعلوا فى ارجاع أنساب الانسان فراضين أن لغة نوح ومن كان معه فى السفينة كانت واحدة ولكن بنيه لما انتشروا فى الارض بعد ذلك اختلفت لغتهم لما تقدم فى أسباب نشأة اللغات ونسل من كل منهم شعوب وقبائل ذات لغات متعددة والى كنهها ترجع فى اصلها إلى أبيهم وإذن فأصول اللغات ثلاثة

١ — اللغة الحامية نسبة إلى حام ومنها معظم لغات أفريقية كالحبشية والمصرية القديمة

٢ — اليابثية نسبة إلى يافث وتعرف بالآرية نسبة إلى آر بن يافث وهى لغة أوربة وكثير من شعوب آسية فى غير الغرب

٣ — السامية نسبة إلى سام وهى لغة غرب آسيا مهد النبوة والرسالة وبها نزلت الكتب المقدسة فأثرت بهذا وبتوسط موطنها فى كثير من فروع اللغتين السابقتين حتى إن بعضها قد عد منها كما سيأتى فى الكنعانية بعد . ولما كانت العربية « وهى لغتنا وموضوع بحثنا » أحد فروعها ناسب أن نذكر كلمة عنهما مع أصل العربية من باب التوطئة والتمهيد

ثانياً — اللغات السامية وأصل العربية

لقد وجد تشابه كبير في لغات الأمم التي سكنت في القديم غرب آسية من العراق والشام وجزيرة العرب فانها فوق اشتغالها على حروف تكاد تكون خاصة بها كالحاء والصاد والطاء والعين وغيرها قد جاءت كثيرة الاشتراك أو شديدة التشابه في الالفاظ والمعاني وفي كثير من الخواص كمميزات التأنيث وكيفية اتصال الضمائر بجميع أنواع الكلمات . ولما كانت تلك الأمم في غالبيتها من أبناء سام وكانت هذه اللغات قاصرة عليهم دون غيرهم الا من خالطوهم كالكنعانيين أبناء كنعان بن حام سكان لبنان ثم لم تعرف خارج تلك الجهات الا منقولة معهم فقد سميت هذه اللغات بالسامية وقسمت في أصولها إلى أرومتين عظيمتين .

الاولى : وهي أقدم شأننا الكنعانية وكان أولى بها أن تكون من الحامية كما تقدم لولا أنها جاءت شديدة التشابه بالفروع السامية لطول ما أقام أهلها مع الساميين وأشهر فروعها (١) الفينيقية لغة أهل لبنان قديماً وقد بادت (٢) العبرية وقد دخلها كثير من فروع الارمية الآتية فصار يقال العبرية القديمة والعبرية الحديثة وقد بادت القديمة وبقيت الحديثة

الثانية وهي أعظمها الارمية الاولى نسبة الى إرم بن سام وأشهر فروعها (١) الآشورية لغة أهل نينوى وقد بادت (٢) البابلية لغة أهل بابل وقد تغيرت إلى الكلدانية ومن الكلدانية تفرعت السريانية والارمية الثانية ومكثتا إلى مجيء الاسلام ثم بادت الارمية قطعاً والسريانية إلا على ألسنة القليل (٣) العربية القديمة وهي لغة العرب البائدة ذات الاتصال القريب بأرم وقد عاصرت قدامى أخواتها وقبيل أن يبيد أهلها انتقلت إلى اليمن وعرفت بها على

أيام يعرب بن قحطان والكنعانية تأثرت باليمنية القديمة وتأثرت اليمنية بها فنشأت العربية الوسطى أو القحطانية التي تمثلت بعد في السبئية والحيرية وبقيت حتى غلبت عليها العربية الحديثة وهى العدنانية أو المضرية وان كانت تأثرت بالسبئية والحيرية جنوبا وبالعبرية والسريانية شمالا ثم استمرت فى طريق النضوج والتهديب إلى أن قاربت فيه الذروة قبيل الاسلام فنزل بها القرآن الكريم فأتمه عليها ونشرها على لسان من آمن به فى مشارق الارض ومغاربها. من ذاك يتبين أن اللغة العربية أصل من أصول الارمية القديمة التى هى منشأ اللغات السامية جميعا ماعدا الكنعانية أو بغير استثناء لما سبق من أن الكنعانية ليست أصلا فيها بل كثرة الشبه بها ثم مع فضل اللغات السامية على غيرها كما يقول علماء اللغات بكثرة الكلمات وتنوع الاساليب واطراد القياس ووضوح مخارج الحروف وعدوبة المنطق قد فاقت العربية أخواتها جميعا فى ذلك وفى غيره حتى رأى كثير من العلماء قديمين وحديثين شرقيين وغربيين أنها أصل اللغات السامية جميعا بما عقدوه من موازات بينها وبين السريانية والعبرية وهما أغنى الساميات بعدها إذ اتضح من هذه الموازات أن العربية أصل لها بدليل أن الكلمات المشتمة على حرف الضاد وهو خاص بالعربية دونهما تنقل اليهما بجعل الضاد صادًا فى العبرية وعينا فى السريانية باطراد ولو كانت العربية ناقلة عنهما لما كان ثمت داع لجعل هذين الحرفين ضادا لوجودهما فيها وبدليل فقدان كثير من أصول الكلم فيهما مع وجوده فى العربية هذا الى ما هو ثابت للعربية من مميزات أوجدها التقدم الفطرى فى بقائها بجزيرتها قرونا طويلة بعيدة عن الاختلاط وآمنة شر المغيرين حتى اكتسبت بذلك مناعة جعلتها أقوى على مدافعة الغير وأبقى على مطاولة الزمن.

ثالثا — طرق نمو العربية وخصائصها

نشأت اللغة العربية على النظام الذى أسلفناه فى نشأة اللغات فتكونت النواة الاولى من ألفاظها بعامل المحاكاة والارتجال ولا بأس من ذكر شئ عنهما الآن حيث يساق الكلام خالصا لطرق نموها وخصائصها

١ — المحاكاة

فألفاظ المحاكاة أنواع : منها ما حوكى به أصوات الحيوان كعواء الكلب ومواء الهر وخوار العجل مما أصله الحرف الاول محركا بحركة . وكرغاء الابل وأصله الحرفان الاولان وكنيب التيس وأصله الباء مكررة وكصرير الجندب وأصله الحرفان الاولان مكررين

ومنها ما حوكى به أصوات الانسان الفطرية كالشهيق والزفير والشخير والزحير مما أصله الحرف الثانى وكالتأوه وأصله الهمزة والهاء والتأفف وأصله الفاء مكرره والقهقهة وأصلها الفاء والهاء مكررتين

ومنها ما حوكى أصوات الطبيعة وتفاعلهما كخزير الماء وحفيف الاشجار وهبوب الريح وكالدق والصك والهد والقط والمص والرش ونحو ذلك مما بين حروفه وصوته تشابه

وقد تلاحظ المحاكاة فى وضع أسماء لبعض الذوات من صوتها كالانف والقم وأصلهما الفاء وكالحلق والحلقوم والخنجرة وأصلها الحاء

ومن هذه الاسماء الصوتية نشأت أفعال إما بالمد كخار العجل أو بالتكرير كخز الماء ونحوهما مما جعل التولد والازدياد عن طريق الصوت فعلا مستمرا .

ب — الارتجال

والألفاظ المرتجلة هي أكثر ألفاظ اللغة فقد خص الله الإنسان بالنطق والفكر فاقتدر بهما على وضع ألفاظ كان ينطق بها كلما دعاه داعي التفهم أو التفهيم ومن العسف أن ننكر عليه الارتجال كما فعل بعض المكابرين ونحن نرى الاطفال ولما يبلغ فيهم النطق والفكر مبلغهما في الكبار كثيرا ما يرتجلون كلمات مركبة من بعض حروف يدلون بها على مرادهم ويستعينون في تفهيمها ببعض الاشارات وقد لا يستعينون ومع ذلك تفهم عنهم بالتكرير فن الطبيعي والمعقول أن يكون الكبار أقدر منهم على الارتجال ولا سيما إذا ساعدتهم عليه استخدام عوامل النمو على ماسيأتي بيانه :

عوامل النمو

هي الابدال والقلب والنحت والاشتقاق والتجوز

الابدال

هو جعل حرف مكان آخر يقرب منه في اللفظ كأن يكونا من مخرج واحد أو مخرجين متقاربين وقد تناول كل الحروف تقريبا ولكن أشهر أنواعه ما يأتي : —

١ — تبادل الهمزة والهاء مثل أيهات في هيهات وهيا في أيا من قول

الراجز : —

فانصرفت وهي حصان مغضبه ورفعت من صوتها هياأبه

كل فتاة بأبيها معجبه

٢ — تبادل الهمزة والياء مثل ألملم في يللم ويلمعي في ألمعي

٣ — تبادل الهمزة والواو عند الحجا-ازيين كوكد في أكد وإشاح

في وشاح

٤ — تبادل الهمزة والعين عند قيس مثل

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم
والأصل أن ومثل

أرى جوادا مات هزلا لآءنى أرى ماترين أو بخيلا مخلدا
والأصل لعلى وابدال الهمزة عينا هو عنعنة قيس

٥ - تبادل التاء والطاء كسلتان في سلطان من قول الشاعر
فتى زاده السلطان في المدح رغبة إذا غير السلطان كل خليل
وطرياق في ترياق

٦ - تبادل التاء والذال مثل سبنتى في سبندى ومد فى مت بمعنى اتصل
٧ - تبادل الحاء والعين عند هذيل مثل ضبع فى ضبح وبحثر فى بعثر
ويسمى الفحفة

٨ - تبادل الحاء والهاء مثل تفيحق فى تفيهق وكده فى كدح
٩ - تبادل الضاد والطاء كقول أعرابي لسيدنا عمر «أيضحى بضبي» يريد
أيضحى بضبي

١٠ - تبادل النون واللام مثل أصيلان فى أصيلال وهتل فى هتن
١١ - تبادل النون والميم مثل غين فى غيم وامتقع فى انتقع
١٢ - تبادل الميم والباء عند مازن كبكة فى مكة وامنى فى ابني
١٣ - ابدال التاء كافا مثل «يابن الزبير طالما عصيكا» يريد عصيت
١٤ - ابدال الضاد لاما مثل

لما رأى أن لادعة ولا شبع مال إلى أرطاة حقف فالطجع
يريد فاضطجع

١٥ - ابدال القاف كافا عند حمير مثل يارفيك فى يارفيق

١٦ - ابدال لام التعريف عندهم ميا مثل امسفر فى السفر ويسمى الطمطمانية

١٧ - ابدال السين تاء عندهم مثل النات في الناس ويسمى الوتم

١٨ - ابدال الكاف شينا عندهم مثل منش في منك ويسمى الشنشنة

١٩ - ابدال العين الساكنة قبل الطاء نونا عند أسد مثل أنط في أعط

ويسمى الاستنطاء

٢٠ - ابدال الياء المشددة جها في الوقف عند قضاة ويسمى العجعة مثل

خالى عويف وأبو عالج المطعمان اللحم بالعشج

يزيد «على والعشى» وقد يحدث هذا الابدال من غير تشديد وفي غير الوقف

٢١ - ابدال كاف المؤنث شينا في الوقف عند تميم وتسمى الكشكشة مثل

قرى في بيتش أى في بيتك وقد يكون هذا الابدال في غير الوقف مثل بش

تقتدى النساء أى بك كما قد تضاف الشين الى الكاف من غير ابدال مثل قرى

في بيتكش

٢٢ - ابدال كاف المذكر سينا في الوقف عند بكر وتسمى الكسكة

مثل احمد ريس أى ربك وقد يكون هذا الابدال في غير الوقف مثل ريس

احمد أى ربك كما قد تضاف السين الى الكاف من غير ابدال مثل احمد ربكس

وباب الابدال واسع المدى كثير المثل ولذا كان من أكبر العوامل في

اختلاف اللهجات

القلب

هو تقديم حرف أو تأخيره في الكلمة بحيث تنشأ كلمة أخرى متحدة المعنى

مع الاولى أو مختلفته يسيرا كبعض وبضع وجذب وجبذ ويغلب أن يكون سببه

خطأ أتى من سبق اللسان أو محاكاة لمسموع مع سوء الاستماع ثم تكرر استعماله

فثبت

النحت

صوغ كلمة من بعض حروف كلمتين أو أكثر إيجازاً في النطق كبسمل وحمدل وسبحل وحوقل وطلبق ودمعز وعبشمى وعبقسى وبعضهم يغالى فيقول إنه قد يأتي في الكلمة فتصفو على حرف واحد وأن من ذلك حروف المضارعة فالهمزة من أنا والنون من نحن والتاء من أنت والياء من هي .

الاشتقاق

أخذ كلمة من أخرى مع تقارب في المعنى واختلاف في اللفظ وهو باب واسع النطاق كثير التقاسيم وقد تكفل به علم الصرف التجوز

استعمال اللفظ أو التركيب في غير ماوضع له لعلاقة هي المشابهة أو غيرها وبقرينة مانعة أو غير مانعة وهو باب حافل وضع من أجله علم البيان الترادف

وهذا عامل سادس هو الترادف ويكون بأن يوضع للمعنى الواحد أكثر من لفظ وهو شائع في العربية وقد تصل كثرته الى مئات الالفاظ ومنشؤه اختلاف الخواطر في وضع الاسماء أو في التعبير عن المعاني على أن بعض علماء اللغة يقول انه لا بد أن كانت هناك فروق دقيقة بين المترادفات تنوسبت على تطاول الزمن ولكن في هذا القول بعض مغالاة ولعل القصد في التعليل أن يقال إن الترادف لم يظهر الا حين اشتد الاختلاط وعرف كل قبيل ما كان يستعمله الآخرون فتبادلواياهم هذا الاستعمال

الخصائص

تلك هي طرق نمو اللغة وزيادتها أما خصائصها فمع صعوبة إثبات شيء من الخصائص للغة ما على اطلاق اللفظ يمكن أن نسند الى العربية من الميزات ما اذا لم يكن

خاصة من خواصها لا يعدم أن يكون فيها أفضل منه في غيرها وأهمه

١ — الاعراب ولا يكاد يشارك العربية فيه من اللغات الا القليل كالحبشية على ضعف وقلة تصرف بينا هو في العربية كثير التنوع والتفرع وبه يكون التميز بين المعاني والوقوف على مراعى المتكلمين فوجوده في العربية دليل على قدم أهلها في البيان وألمعيتهم في تفهم الاغراض فان اختلاف حركة فيه قد يقلب المعنى ويغير من نوع الكلمة

روي أن رجلا من الخوارج قال وخليفتهم إذ ذاك شبيب

فمنا يزيد والبطين وقعب ومنا أمير المؤمنين شبيب

بضم الراء فامر عبد الملك بطلبه ولما وقف بين يديه قال له أنت القائل وروي البيت كما ذكر فقال لم أقل هكذا إنما قلت « ومنا أمير المؤمنين شبيب » وفتح الراء فضحك عبد الملك وخلى سبيله لتخلصه بفطنته

وروى أيضا أن الوليد بن عبد الملك وكان لحانة قال لأحد أشراف قریش من ختمك بفتح النون وهو يريد الضم فقال فلان اليهودى فقال له ما تقول ويحك قال لعلمك تسأل عن ختنى يا أمير المؤمنين هو فلان

٢ — عدم الابتداء بالساكن وعدم جواز التقاء الساكنين الا بضوابط يجعله على قلبه غير ثقيل وهذا خاص بالعربية وقد يجتمع في غيرها من اللغات الاخرى أكثر من ساكنين

٣ — الدقة في استعمال الالفاظ وتوضح في العربية في أمرين أحدهما تفصيل الالفاظ بقدر تفصيل المعاني حتى ليكاد يوجد لكل جزئية من المعنى الواحد كلمة خاصة بها وهذا كثير فصلته مخصصات اللغة في أجزاء الانسان والحيوان والطير والنبات والجماد والزمان وغيرها مما هو موطن التسمية ثم في تفرع الافعال للشيء الواحد فالقتل مثلا للمعنى الكلى وتحتة من الالفاظ ما يبين

كفاة أنواعه . والثاني عدم العدول عن اللفظ المناسب للمعنى ما وجدت تلك المناسبة فان ملاحظة المناسبة ان هى الا من تلك الدقة وهذا مستفيض فى اللغة قد تناول الالفاظ الموضوعية بالمحاكاة كلها وأتى على كثير من المرتجلة عن طرق النمو السابقة وما نطن لكثير من اللغات مثل هذا

٤ - الدقة فى استعمال التراكيب ومن أجل هذه الدقة الكلامية وعليها قامت علوم البلاغة الثلاثة بفصولها الضافية وأبحاثها الوافية التى يبعد أن تضارع بمثلها فى غير العربية

٥ - الإيجاز وليست هناك أمة تبارى العرب فيه فقد بلغ من إيجازها أن كان الكلام على غنائه فى المعنى يقع فى الجملة والجملةتين. وما الامثال والحكم وجوامع الحكم الا آيات شاهدة على هذا ثم لعل فى اكثار العرب من استعمال الايماء والاشارة والتعريض والكناية واللحن الصارف الى غير المتبادر أحياناً ما يرينا مبلغ مقدرتها على الإيجاز ومهارتها فيه

٦ - خضوع عوامل النمو السابقة فى جملتها لكثير من الاقيسة والضوابط مما لا يوجد بعضه فى غيرها ألبته أو يوجد بقدر ضيق يجعل الشاذ أكثر من المقيس.

٧ - هذا وبالعربية خاصة قيل إنها لا تعتبر من آيات الكمال والمدح بل من بقايا النقص والعيب وهى الاشتراك ويكون بأن يطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى وبخاصة اذا كان فى بعض دعائيه التضاد مما يؤدى الى التعمية والابهام إذ هذا يتنافى مع الغرض المفروض فى اللغة من أنها وسيلة الى الايضاح والبيان ويغلب أن تكون الالفاظ المشتركة من بقايا اللغة التى لم يأت عليها الزمن بعوامل الاختصاص ولكن مما يهون الامر فيها بالعربية وجود كثير من الكلمات المختصة ازاء اللفظ المشترك فان فى ذلك غناء للقائلين وفراراً مما فيه تلبس على السامعين هذا الى ما قد يفرض به المقام اذا استعمل اللفظ المشترك من قرائن تتطلب المعنى المراد دون لبس ولا ابهام على ان الابهام قد يقصد فى بعض الاحيان.

رابعاً - اختلاف لهجاتها وعوامل تهديها

عرف مما سبق بيانه في اللغات السامية وأصل العربية أن العربية اجتازت ثلاثة أطوار طور أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب الشعوب العربية إلى سام لانهم إلى ابنه إرم ينسبون وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الأول باليمنيين القدماء اختلاطاً جعل لغة كل فريق تؤثر في لغة الفريق الآخر ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة فصارت أوضح منها في العربية الثانية لما هو متفق عليه من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان ومن ثم عرفوا بالعرب المتعربة ثم كان ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم أما الطور الثالث فهو ما كان من نشوء شعب عربي جديد حيث نزل إبراهيم وادى مكة على مقربة من جرهم الثانية وهي قحطانية فرفع قواعد البيت ثم عاد تاركاً هناك ابنه اسماعيل الذي أصهر في تلك القبيلة فكان له بنون نشئوا يتكلمون لغة جديدة تأثروا فيها بلغة أبيهم وبلغة هؤلاء القحطانيين حتى إذا ما انحدر التناسل إلى عدنان تم ظهور شعب ثان هو الشعب العدناني الذي عرف باسم العرب المستعربة وبذلك كانت هناك لغتان قحطانية في الجنوب وعدنانية في الشمال ولكن مهما قلنا في التفرقة بين اللغتين فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منهما تامة الاستقلال عن الأخرى لأن تكوين الأخيرة يأبى هذا الاستقلال كما يابى إلا أن تكون الأولى أغلب عليها عملاً بتغلب الكثير على القليل وكذلك مهما قلنا في التقارب بينهما فلن يبلغ التقارب درجة الاتحاد وبخاصة إذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا بعيدين في الجنوب عن الاختلاط بالعدنانية في الشمال وعلى هذا الأساس سيكون قولنا في اختلاف

لهجات العربية وعوامل تهذيبها وكان ظاهر العنونة يقتضى أن نقدم القول فى اختلاف اللهجات عليه فى عوامل التهذيب لولا أن ما سنسوقه بعد من اختلاف فى اللهجات هو بقايا ما مكث منها على الرغم من تلك العوامل حتى جاء الاسلام وفى هذا ما يدعوا الى عكس الترتيب

عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذى حدث فى اللغة الى أمرين أحدهما السير بها فى طريق التحسين والترقى بمجهود كل قبيل على حدة وبقطع النظر عن أن يتقرب فى ذلك الى لهجات غيره من القبائل الاخرى والثانى العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض تقريبا ينتهى كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد ولكل من هذين الامرين عوامل هى المجتمعات الخاصة للاول والعامة للثانى على أنه من الطبيعى أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد عاملة عليه أيضا من الناحية الاخرى فما هى اذن تلك المجتمعات

١ - المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم اليها أحوا لهم وشهدت بها الفاظهم وكلها كان يستدعى منهم أن يقولوا ويتكلموا محاولين فى ذلك تجويد قو لهم وتحسين كلامهم ما أمدتهم القرية وطاوعهم البيان وفى هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقى ما نريد أن نقول

فمن المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو اغارة وكان يقع غالبا فى قبة ينصبها من تكفل بأمرهم فيجتمع فيها أهل الحل والعقد منهم ثم تدور أقداح القول ويجرى النقاش فيه تأييدا أو نقضا حتى يصلوا الى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ومن هنا نشأ ما يذكرونه عن رأى المبيت والاقبال عليه والرأى النطير والانصراف عنه

ومنها ما كان للحكومة والفصل في الدعاوى والمنازعات فيستعد كل فريق
للادلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره أمام حكم يرضونه ويدعونون لحكمه وقد
كان هؤلاء الحكام يختارون ممن عرفوا بحصافة الرأي وحضور البديهة وقوة
البيان حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من
تلك المعمة الكلامية التي يريد أن يخرج منها كل طرف في الخصومة فائزا على
خصمه منصورا

ومنها ما كان للاتعاظ والاعتبار فما خلا قبيل من ذى بصيرة نافذة ونفس
طاهرة يجتمعون اليه بعض أيامهم لاستماع ما فيه ترغيب أو ترهيب كما توحى
عقائدهم وتنطق فطرتهم ومن هذا النوع ما كان من اجتماع قريش حول كعب
ابن لؤى كل يوم عروبة يعظمهم ويذكروهم ويقال إنه لذلك سمي يوم الجمعة وإنه لذلك
أيضا واسبقه يومى السبت لليهود والأحد للنصارى اختاره الاسلام بعد لجعل
صلاة الجمعة فيه

ومنها ما كان للتحالف والتعاقد على الدخول فى أمر أو الكف عن أمر مما
يتطلب من ذوى المكانة والزعامة قبل الدعوة اليه قولاً وبيانا ومن
السامعين مدافعة وحوارا حتى تستقر الاشياء فى أنصبتها وتطمئن النفوس الى
الايمان بها. ومن ذلك حلف المطيبين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من بنى
عمهم عبد الدار ما أعطاهم إياه أبوها قصى بن كلاب من أمور البيت فأبوا
عليهم وكاد يقع الشر لولا هذا الحلف الذى قسم الامور بينهما وانماسمى بذلك
لانهم غمساوا أيديهم حين عقدوه فى طيب مسحوا به الى كعبة توكيد الهوت وثيقا.
وكثيرا ما كان يقع التحالف اذا تسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحد ويتهمج
على العرف فيهب أشرافها يتعاقدون على التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر كما

فعلت قريش في حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب وسفيان بن حرب
ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة سنة وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه
وسلم «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم
ولو دعى اليه فى الاسلام لاجبت»

ومنها ما كان اذا خلوا من تلك المشاغل لمحض الانس وترويح النفس بذكر
ما سلف من الحروب والوقائع وقص ما دضى من السير والاخبار وتناشد ما
حلا من الرجز والقريض الى غير ذلك مما تنشرح له الصدور وتنتعش به الافئدة
وكان هذا النوع من المجتمعات لا يقع غالبا الا ليلا ولذا سمى حديثه بالمسامرة
والسمر وهما فى اللغة حديث الليل وكانت عادتهم فيه أن يتحلقوا وفى وسطهم
من ينتهى اليه أمرهم وأحيانا كان يتحسس المتكلم اذا أراد ذكر قصص غريب
فينهض للاقائه واقفا كما يفعل الخطيب

هذه هى المجتمعات الخاصة وقد قطعت فى تهذيب اللغة بالمعنى الاول شوطا بعيدا
ولها أسست الاندية ومن أقدمها دار الندوة التى أسسها قصى بن كلاب فكانت
تجتمع اليه فيها قريش الامور السالفة ليلا ونهارا ولهذا سمى مجمعا على أن الاجتماع
بها لم يقتصر على تلك الامور بل تعداها الى غيرها كالا ملاك والاعذار فكان
يقع من الكلام ما يلائم الموضع وع ومن الخطب ما يناسب المقام

ب — المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعمنى بها ما أدى الاجتماع فيها الى الاختلاط بين
قبيلتين أو أكثر أيا كان الدافع الى هذا الاختلاط ونقصد منها أكثر ما نقصد
العمل على التقارب والتوحيد بين لغات القبائل وبخاصة بين يمن وهضر وإن
كانت تؤدى مع هذا الى ما سبق ذكره من الحسن والارتقاء وقبل أن نتكلم
على عواملها وهما قريش والاسواق لابد لنا من القول بأن العامل الاساسى قبل
هذين كان اختلاط القحطانية بالعدنانية حيث غادرت كثيرها اليمن منذ القديم

لسيل العرم أو للعيش أو لغيرهما من أى شىء تشاء ففلائت من الجزيرة العربية وسطها وشمالها وما بعد من أطرافها وبذلك كان تخالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالى الايام ثم كان ماسنذكره عن قریش والاسواق فضعفت كل الضعف وزال ما بقى من فارق أو كاد

قریش

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » رفع ابراهيم قواعده وابنه اسماعيل فأقاما أركانها وأتما بنيانه وتقبل الله دعاءهما الذى حكاه سبحانه يقوله عنهما « واذ رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » فكان بيتا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصى ويأتون اليه من كل فج عميق يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه ولقد كانت أفئدتهم تهوى اليه استجابة لدعاء نبيه وخليفه حيث يقول « ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلمهم يشكرون » وما زال هذا البيت محل وفادة لجميع العرب من لدن اسماعيل حتى جاءت قریش فكانوا جبرته الأدين يقيمون حوله ويقومون بسدائنه توفيراً لراحة زائريه وعملا على ارضاء قاصديه يستمعون جميع لهجات العرب اذا دعوا ولبوا أو تضرعوا وتوسلوا وإذا أرادوا أمراً أو قصدوا شيئاً فلا يزالون موسم الحج على طوله وإذا لم يك حج كان اعمار ينقلون إلى لغتهم ما يستحسنون من ألفاظ وعبارات وينقل الوافدون اليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم فينشرونه فى أرجاء الجزيرة ونواحيها وهـ كذا دواليك بقيت قریش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهديب حتى تهذبت عبارتها وترقى أسلوبها واتسعت

لغتها وصارت أوفى بتأدية المراد من غيرها وأصبحت لهجة مكة وهي حاضرة العرب وبلدة قريش أوضح اللهجات بيا ناوأعذبها أسلوبا وأخفها منطقا وأوسعها فهما شأن اللهجات في حواضر المدن وقواعد الممالك تجدها من الحلاوة والطلاوة مالا تجد لغيرها من سائر مدنها وجميع قراها ثم لم تك قريش محل وفادة فحسب بل كانت بحكم عملها التجاري لا تزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف الى اليمن جنوبا والشام شمالا فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرها الى غير هذين الاقليمين ما تصادفه من خلاف غزوا يكسر من حدته ويفل من غربه فاذا هو مستكين ضعيف يتوارى ثم لا يلبث أن يزول

الأسواق

جمع سوق وهي مجتمع الناس أصلا للبيع والشراء وكانت للعرب أسواق عامة يبدؤون التنقل اليها من أوائل سنتهم بالشمال ثم لا يزالون يسرون اليها شرقا فجنوبا حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتهاء رمضان فتعمد جميع القبائل الى الاستعداد خلال شوال للرحلة الى سوق عكاظ فيعمرونها من أول القعدة إلى عشرين منه ثم يغادرونها إلى مجنة قرب مكة بقية القعدة ومن مجنة يذهبون أول الحجة إلى ذي الحجاز بجانب عرفة لا بمنى كما قد يقال ومنها يكون المنصرف إلى الموقف الأعظم في عرفات وبالصدور منه ينفرط عقد الناس

ولما كانت هذه الأسواق الثلاث قريبة المكان من مكة والزمن من موسم الحج كانت أعظم الأسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا وكل مجتمع كهذا لا يخلو والناس يزحم بعضهم بعضا من بادرة غضب أو سابقة قول وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين فيرى كل من المتنازعين حوله من الخلطاء والبعداء ما يطلق من لسانه ويثير من انهاله فيقول ويفخروا الجموع مثار القول والفخر ثم ينصرفان وفي نفس كليهما موطن لم يبلغه فيعود هو

أو أحد عشيرته إلى السوق من عامة القابل وقد أعد قولاً يرد به على منازعه ويستكمل به نقصه وهكذا بدأ الاتجار بالكلام في الاسواق وما زال آخذاً في الازدياد حتى كان خير بضاعة أو هو البضاعة النافقة في هذه الاسواق وأخصها عكاظ فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بها عدته وللنفاذ آيته فيستمع المحكمون ويقدمون أو يؤخرون وفي هذا من الباعث على الروية في القول والتخير للنظم مارفع من صناعة الكلام وجعل التروىء من عادة الكثيرين وقد كانوا من قبل ينطقون دون سبق روية أو تفكير وشتان ما بين البديهة وإن وافقت الصواب وسداد البصيرة وهدى التفكير

وإذ كان الشعراء والخطباء وكل ذى كلام يريد له سعة فهم وكثرة ذبوع ولا بد أن يريد يرون لغة قريش أو في اللغات بهذا فقد انشأوا إليها جميعاً يستوحدون فصاحتها وبيانها ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى والامام الذى بقوله يقتدى عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها وكانت الاسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب حتى قارب توحيد اللهجات النام واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ولمعرفة مواطن الاعجاز فيه فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات

اختلاف اللهجات

ليس أمامنا من قول فى اختلاف اللهجات بعد الذى قدمناه من أن عوامل التهذيب قد تغلغلت فى اللغة فنقتها وهذبتها ووحدتها فى مجموعها وقربتها وجعلت لغة قريش مهيمنة للجميع يمتلكون زمامها ويفضلون القول بها على غيرها سوى أن نذكر بعض هذه اللهجات لتضم إلى ما قدمناه منها فى الابدال

١ - لليمن

١ - تلتلة بهراء . وهى كسر حروف المضارعة إلا همزة إخال فانها عامة الكسر لدى الجميع

٢ ، ٣ - وهم كلب ووكهما . والاول كسر هاء الغائب دون أن يسبقها كسر ولا ياء ساكنة . والثانى كسر كاف المخاطب بعد الكسرة والياء الساكنة وقبل ميم الجماعة

٤ ، ٥ - استعمال ذو وفروعها بدل الذى وفروعها عند طيء . وفتح عين الناقص المكسورة عندهم أيضا

٦ - حذف نون اللذين واللتين رفعا عند بلحارث من مذحج

٧ - اعراب المثني بالالف عند بطن من كلب يدعى ربيعة

٨ - حذف بعض الحروف دون علة عند أزد الشحر وعمان مثل مشالله فى ما شالله وتسمى اللخلخانية

ب - لمضر

١ ، ٢ - ضم هاء الغائب بعد كسر أو ياء ساكنة عند الحجازيين . والزامهم ما النافية عمل ليس

٣ ، ٤ - عدم اعمال ما عمل ليس مطلقا عند تميم . وقصر أولاء الاشارية ومد إلى الموصولة عندهم أيضا

٥ - اختلاس هاء الغائب أو تسكينها بعد حركة عند بنى كلاب وبنى عقيل

٦ - اجراء الذين مجرى جمع المذكر رفعا عند بنى عقيل وهذيل

٧ - قلب ألف المقصور ياء إذا أضيف إلى ياء المتكلم مع ادغامها فيها عند هذيل

ج - لهجات غير مقيدة يمين أو مضر

١- اعراب الاسماء الخمسة بالحركات مقدرة على الالف أو ظاهرة على عينها

٢- اعراب المنقوص نصباً كاعرابه رفعا وجرا

٣- الحاق الضائر بالفعل على أنها علامات ثنية وجمع

٤- زيادة حروف لين باشباع الحركات في المد

٥- تريق المفخم بطريق الامالة من الفتح الى ما بين الفتح والكسر

٦- تسكين بعض المتحرك بدون علة كالعين في معكم

٧- الاختلاف في نوع حركة أحد الساكنين حين التخلص من التقائهما

٨ - » » التذكير والتأنيث حيث لا يجب أحدهما

٩ - » » الهمز والتسهيل

١٠ - » » الفك والادغام

١١ - » » صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة

هذا ومن اختلاف اللهجات أيضا اختلاف القبائل في معاني الالفاظ اختلافا

نشأ عنه الترادف والاشتراك والتضاد وقد تقدم وجه الرأي فيه

معارف العرب في الجاهلية ومعتقداتهم

ينبغي لمن يتعرض لهذا الموضوع بالكلام أن يصدره بأمرين جديرين
بالعناية هما: —

أولاً أن المقصود من كلمتي معارف ومعتقدات ليس ما يفهم من كلمتي علوم
وأديان بالمعنى الذى يعرفه الناس لان الحياة البدوية الجاهلية تأبى هذا الاطلاق
فما كان علم من غير حضارة ولا كان دين بغير دعوة وكلا الامرين لم يك
موجوداً في الجزيرة العربية قبل الاسلام الا في أجزاء قليلة من أطرافها لا
يصح تغليبها على المجموع الكثير ولهذا اختيرت الكلمتان السابقتان في العنوان
له دون أختيهما اللاحقتين

وثانياً أن ما عرف عنه لم يك مرجعه الاثر والحفر أو التدوين القديم كما
هى الحال في بعض التواريخ فان العرب كانت بعيدة اذ ذاك عما تستلزمه هذه
الاشياء من تقدم في الصناعة ومعرفة بالكتابة انما كان مأخوذاً مما نطقوا به
في أشعارهم وما قصه القرآن من أحوالهم وهو لا يعدو في المعارف نتيجة
التجربة وفي المعتقدات أثر العادات الا ما أخذوه في النوعين عن غيرهم من
الامم ذات الحضارة أو الدين أو الاثنين معا كالروم والفرس واليهود بحكم
المخاطبة والجوار كما سنقصه بعد بالاجمال .

اولاً — المعارف

١ — السماء وكائنات الجو

لعل خير معارفهم في الجاهلية علمهم بالسماء وكائنات الجوالارتباط ذلك بمعاشهم
من حيث توقف حياتهم على المطر وهدايتهم على النجوم وقد استعانوا على كثير من

هذا العلم بالكلدانيين وهم بقايا كهنة بابل عباد الكواكب ذوى المهاره فيه ويعرفون عند العرب بالصائبة الى هذا يرجع السبب فى اشتراك كثير من الفاظه ومصطلحاته بين العربية والكلدانية

وقد عرف العرب الافلاك وهى مدارات السيارات وكثيرا من الكواكب والنجوم وعرفوا السيارات السبعة وهى الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وكذا البروج الاثنى عشر وهى ما يقع من الكواكب والنجوم فى سمت مدار الشمس وسموها بأسماء الصور التى تشابهها من بعض الحيوان أو النبات أو الادوات وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت كما عرفوا منازل النمر الثمانية والعشرين وهى الكواكب والنجوم التى تقع فى سمت مداره ويقطع كل منزلة منها فى ثلاث عشرة ليلة وقسموها على الفصول الاربعة الشمسية فجعلوا لكل فصل سبع منازل وهى بالترتيب السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهقعة والذراع للربيع ، النثرة والطرف والجهة والزبرة والصرفة والعواء والسمك الاعزل للصيف ، الغفر والزبانى والاكيل والقلب والشولة والنعام والبلدة للخريف ، سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعد وسعد الاخبية والفرغ الاول والفرغ الثانى والريشاء للشتاء .

وهم يسمون هذه المنازل بالانواء والنوء عندهم النجم يسقط تحت الافق الغربى مع الفجر ويطلع رقيبته فوق الافق الشرقى من ذلك الوقت ولما كان الذى يهمهم هو المطر وما يتبعه من رياح وحر أو برد قسموا السنة من حيث المطر سبعة فصول سموها بأسمائه وهى بالترتيب البدرى وأنواءه ثلاثة تبدأ بالفرغ الاول ويليه الوسمى أربعة أنواء والولى عشرة والغمير

أو المد أربعة والبسرى اثنان وبارح القيظ ثلاثة ثم احراق الهوى وهو اثنان وعلى ترتيبها هذا يبدأ المطر ضعيفا ثم يأخذ في الزايد حتى يبلغ أشده في الولى ثم يعود الى التناقص حتى يكون الجفاف .

٢ - البيطرة والطب

ومن خير معارفهم بعد النجوم البيطرة وهى تطبيب الدواب من ابل و خيل لشدة حاجتهم اليهما وبخاصة الخيل فقد بلغوا درجة كبيرة فى تعرف أمراضها وعوارض هذه الامراض وكيفية معالجتها وساءدهم على ذلك واسع علمهم بصفات وطباعها وعيوبها مما استفادست بحوثه وأمد الرواة بالتأليف فيه ويغلب أن يكون علم البدو بكثير من ذلك الى الآن موروثا عنهم .

أما طب الانسان فلم يك عندهم فيه شىء ذو بال الا ما كان من الحكى والبر والكن فى أواخر الجاهلية ظهر فيهم بعض الاطباء كالحارث بن كلدة الذى تعلم الطب فى فارس وزاوله ببلاد العرب وهو صاحب المحاوره الطبية المشهورة مع كسرى وقد سأله فيها عن كثير من قضايا الطب فجاءت إجابته عنها أشبه برسالة طبية ذات قيمة. هذا على أن جهل العرب بالطب لم يمنعهم أن يعرفوا كثيرا من أسماء العلل وسماتها والامراض وعوارضها كما تدل على ذلك ألفاظهم الموضوعة فى هذا الباب

٣ - التاريخ والانساب

لم يك عندهم شىء ذو نظام من علم التاريخ انما كانت لديهم أخبار مقتضبة متوارثة وقفوا عليها بمجاورتهم للفرس والروم ومخالطتهم لليهود وبما أسس فى أطراف جزيرتهم من ملك وبعث هنا لك من أنبياء وبالرغم من أنهم بكروا فى وضع شهورهم القمرية وفى علمهم بالسنة الشمسية لم يستخدموا التاريخ بالسنين كما فعلت الامم حولهم مكتفين بقواهم للزمن القديم عادى وللاقدم

منه زمن السِّطْحِل ومستغلين عظام الحوادث للتأريخ وكلما جدت حادثة عفت على سابقتها وهكذا بقوا حتى جاء الاسلام .

وبمقدار اضطرابهم في التاريخ كانت دقتهم في الانساب فقد كانوا يعلمون بها الماما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكان أعلي النسب عندهم الشعب ومنه تدرج القبائل ومن القبيلة تكون العائير فالبطون فالنخاذ وليس بعد الفخذ إلا الفصيلة. ولقد كان فيهم نسابون تعيا الدفاتر ولا يعيرون وتضل الكتب ولا يضلون ساقهم الى ذلك حرصهم على سلامة أنسابهم ونقاء أحسابهم لحاجتهم الى النسب في المقاتلة والمناصرة والى الحسب في المفاخرة والمنافرة مع شدة طلبهم للتأثر وعدم التواني في أخذه ممن هو محله أو هو منه قريب

٤ - القيافة والعيافة

القيافة أصلا الاهتداء بآثار الاقدام على أربابها غير أنهم توسعوا فيها فجعلوا منها الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسبه وتسمى الاولى قيافة الاثر والثانية قيافة البشر وقد كانوا في الاولى يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب والبصير والاعمى والاحمق والكيس وكذلك كانوا يفعلون في الحيوان. وكانوا في الثانية ينظرون عدة أشخاص مجهولي النسب لهم فيلحقون كلا برهطه وعشيرته فاذا كانوا من رهط واحد ألحقوا الابن بأبيه والأخ بأخيه والقريب بقريبه وقد اشتهرت بهذا النوع قريش وبالنوع الاول بنو مدلج وهم بطن من كنانة كما اشتهر من غيرها في النوعين أفراد كثيرون . وكلاهما ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال أوجدته في المستعدين منهم حاجتهم الى تعرف الآثار وحقيقة الانساب والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة بل هي أم الاختراع وان المطلع على ماروى من هذا عنهم أيناله الدهش الكبير. أما العيافة فأصلها الاستدلال باسماء الطيور وسقوطها وارتفاعها على ما يتفاعل

به أو يتشاءم منه والمكنهم توسعوا فيها أيضا حتى تعدت الطير إلى غيره من حيوان ونبات وجماد وتعدت ماتقدم من الاسماء والسقوط والارتفاع إلى لاصوات والحركات وسائر الاحوال والصفات. وهى كالتأية ضرب من الدراسة بقوة الحدس وصدق الخيال وقد اشتهرت بها قبائل أخصهم بنو لطف وعمر بن الازد وأفراد آخرون. وكان من عادتهم فى عيافة الطير أن يزجروا على السائح ريتبر كوا به وهو ما أراك المياسره فأمكن الصائد منه ويكرهوا البارح ويتشاءموا منه وهو ما أراك الميامنه فلم يمكن الصائد منه وهذا من زجر الطير سقوطا وارتفاعا. وكثيرا ما كانوا يزجرون بالاسماء فيجعلون المهدد هدى وهداية أو يأخذونه من الهد والانتلاف كما يأخذون الحمام من حم اللقاء أى قرب أو من الحمام وهو الموت ويجعلون العقاب عقيب خيرا وعقبي شر وكذلك فى سائر الطير إلا الغراب فانهم لا يخرجون فيه عن التطير والتشاؤم فيجعلونه من الاغتراب ويسمونه غراب البين كما يسمونه حاتما لانه يحتم عليهم بالفراق والاعور تطيرا عليه إذ كان أصح الطير بصرا ولعل ذلك أتاه من تعوده الوقوع فى مواضع الدور يتلمس إذا بان أهلها للنجعة وبعضهم كان يضم اليه فى الرحلة والنوى التطير بالابل لانها المتفرقة للالاف والكن ذلك لم يك بالسكثير المقبول إذ أنها من جانب آخر آلة الوصلة واللقاء

٥ - العرافة والكهانة

العرافة هى القضاء بالغيب وكذلك الكهانة لا فارق بينهما غير أن من الناس من قصر العرافة على تعرف ما خفى من حوادث الماضى وجعل الكهانة للتكهن بما عسى أن يكون فى المستقبل ولكن لم نجد أثرا بينا يسمح بهذا التخصيص. وكل ما يمكن أن يعد فاصلا بين النوعين هو أن العراف كان دائما أقل من الكاهن. وكان يستخدم خبرته غالبا فى معالجة بعض الامراض ولهذا كان

مقصد المرضى وذوي الاسقام يؤيد ذلك ماورد من أشعار ومن أشهر الغرائين بالتطبيب والغالب عليه التطبيب الروحاني رباح بن عجلة باليمامة والابن السعدي بنجد . أما الكاهن فكان يفرع اليه في تعرف الحوادث ويقصد في المنافرة والخصومة للقضاء فيها بالحق من إدراك غيبه وكان من أشهر الكهنة في العهد الجاهلي سطيح بن مازن الغساني وشق بن أنمار النزري وسواد بن قارب الدوسي والكتب الادبية والتاريخية ملأى بحوادثهم وحكاياتهم . هذا .

ويعلل العلماء الآن لحوادث الكهانة التي لاشك في صدق بعضها لدى العرب وغيرهم من الامم القديمة في مصر واليونان والرومان والهند والصين بازاءها إلى ما أثبتته العلم الحديث من السبات المغناطيسى وهو عبارة عن تخدير يحدث في الجهاز العصبي الحسى تنفصل على أثره النفس من الجسم فلا تبقى مرتبطة به إلا ارتباطا خفيفا لانها بهذا الانفصال تعود إلى جانب من حررتها الاصلية فتبدو منها تلك الادراكات الغريبة التي عجز الماديون عن شرح عليها والتي نسبتها الاديان في رأيهم لتقريبها لاذهان الناس إلى الملائكة أو الشياطين ويقولون لما كان انفصال الروح عن الجسم لا يبلغ منتهاه مهما كانت درجة السبات إذ نهايته الحققة لا تكون إلا بالموت كان من الحتم أن يبقى شيء من الرابطة يعكر صفو هذا الانفصال فيتمسب الكذب إلى كثير من مدركات النائمين ومنهم الكهنة والعرافون الذين كانوا يلقون أنفسهم في السبات لما ثبت من أن الاستعداد الشخصى فى النائم والمنوم قد يجتمع فى بعض الناس ومن ثم نهت الشرائع عن الركون إلى الكهنة وكانت العقيدة الحققة أن الله سبحانه هو وحده المستأثر بعلم الغيوب

٦ — الخط العربى

قد كان يجمال بنا ألا نعد الخط العربى من معارف العرب الجاهليين فى شيء لانهم

كانوا أميين في عموم البدو ومن قرأ أو كتب في حصرهم كان خطه قاصرا وقراءته غير نافذة والسكن وجوده فيما تحضر من دولهم قديما باليمن والحيرة ولهيجهم في لغتهم بكثير من الالفاظ الموضوعه له ولادوات الكتابة ولو لم يعرفوها الى ما كان لهم فيه من شأن بعد الاسلام ارتكز على الخط الحيرى القديم كل هذا جعلنا لا ندعه دون كلمة عنه تعتبر تاريخية في هذا الموضوع فنقول.

لا خلاف في أن منشأ الخط العربى القديم كان ببلاد اليمن فى الخط المعروف بالمسند الذى ساد بها على عهد السبئيين والحميريين وهذا المسند يرجع الى الارامى وهو خط المعينين أقدم الامم الارامية نزوحا الى هذه البلاد. والارامى مقتبس من الفينيقي المأخوذ من الخط المصرى القديم ولما انتقلت كندة وهى من كهلان الى شمال الجزيرة العربية انتقل معها المسند فعرف بالاكندى ثم بالنبطى نسبة الى جيل عربى عرفه منها هناك ومن كندة والنبط أخذته أهل الحيرة والانبار فنسب اليهما وعنهما نقله الى مكة بالحجاز حرب بن أمية قبيل الاسلام فتعلمه عدد من أهلها كان منهم كتاب الوحي بعد على عهد رسول الله وبعد تأسيس الكوفة على مقربة من الحيرة عرف الخط الحيرى باسم الكوفى ثم أخذ يزاد زخارف وأنواعا على توالى الحضارات الاسلامية حتى وصل الى ما نراه الآن

ثانياً — المعتقدات

كان للعرب فى جاهليتها معتقدات شتى بعضها يجرى مجرى الشريعة والمذهب هى الاديان وبعضها يجرى مجرى العرف والعادة هى الاوابد .

١ — الاديان

ففى الاديان كانوا كثيرى المذاهب الى الحد الاآتى

١ - عبدة الاصنام وهم الغالية العظمى وعقيدتهم الاقرار للخالق بكل شيء
واكنهم ينكرون البعث وارسال الرسل ويعبدون الاصنام لتقربهم الى الله زلفى
٢ - عبدة الشمس أو القمر أو النجوم وعقيدتهم كهقيدة عباد الاصنام
وكذلك موقفهم فى عبادتها فهم يتخذونها قربى الى الله لانها من دلائل
عظمته وباهر آياته .

٣ - عبدة الملائكة طمعا فى خيرها والشرها من خوفها على أنها جند الله
وهم فى العقيدة كالسايقين . ومثلهم عبدة الجن على أن فيها الخير والشرير
٤ - عباد النار كالمجوس وقد سرى اليهم ذلك من الفرس وبيوت النار عندهم
كبيوت الله عند ذوى الكتاب

٥ - الصابئة وهم عباد الفلك الذين يعظمون بروج الشمس الاثنى عشر
والكواكب السبعة السيارة ويشبتون لها ما يشبته الموحدون لله وقد سرى
هذا المذهب اليهم من سكان بابل القدماء هذا على أنه قد كان فى الصابئة قبل
الاسلام من عدل عن هذا الى دين ابراهيم كما كان فيهم بعده من هو شديد
الميل الى دين المسلمين ولذلك ذكروا فى بعض الآيات على أن منهم المؤمنين
٦ - الشنيون وهم القائلون بان الاله اثنان اله خير هو النور واله شر هو الظلمة وأنهما
قديمان ثم يشبتون لهما من الصفات ما يشبته المؤمنون لله وهؤلاء هم الزنادقة
٧ - الدهريون ومذهبهم إنكار الخالق والبعث على أن الطبع يحى والدهر ينفى
٨ - اليهود وكانوا فى يثرب واليمن

٩ - النصارى فى الشمال من ربيعة وغسان وفى الجنوب فى نجران
١٠ - الموحدون وكانوا آحادا يدينون بما تسرب الى العرب من ملة أبيهم
ابراهيم والمعروف منهم قليل .

ب — الاوابد

وكذلك كانت لهم أوابد كثيرة ينزلون على حكمها ويعملون بها وأهمها .

١ - استقسامهم بالازلام وهى قداح مكتوب على كل اثنين منها الامر وضده كسافر أو لا تسافر مثلاً فاذا ما أراد أحدهم شيئاً ذهب الى سادن الوثن فأخرج له أحدها فعمل بما فيه

٢ - تفاخرهم باب الميسر وهو المقامرة بالقداح وعددها عشرة الفذ بنصيب والتوأم باثنين والضرب أو الرقيب بثلاثة والجلس بأربعة والنافس بخمسة والمسبل أو المصلح بستة والأعلى بسبعة ثم السفيح والمنيح والوغد ولا أنصبة لها انما كانت تخرج فتزد تضليلاً لذوات النصيب فكان من عادتهم اذ أرادوا اللعب أن ينحروا جزوا يقسمونها عشرة أقسام ثم يأخذوا فى استخراج القداح بعد تقسيمها عليهم وكلما خرج قدح أخذ صاحبه نصيبه وعمدوا إلى النحر اذا قلت الانصبة الباقية عن إيفاء اكبر قدح لم يخرج وفى هذه الحالة يكون الغرم فى ثمن ما نحر على ذوى السهام الباقية وهكذا حتى تنتهى جميع القداح فتنتهى النوبة

٣ - حمايتهم البحيرة ببحر أذنبا أى شقها وهى الناقة تنتج البطن الخامس وكذلك كانوا يحمون السائبة وهى التى يسيبونها لنذر أو شبهه والوصيلة وهى أنثى البطن السابع للشاة واذا كان معها ذكر وصلته بالحماية وكذلك الحام وهو الفحل يخرج عشرة أبطن

٤ - إغلاق الظهر وهو جب سنام الفحل اذا بلغت الابل مائة ليمنع عنها العين ومثل ذلك التنفقة وهى فقء عينه اذا بلغت الفا فاذا زادت عنه كانت التعمية وهى الذهاب بعينه جميعاً .

٥ - ضربهم الثور لتشرب البقر على زعم أن الجن تركبه فتخيف البقر فاذا

ضرب ذهبت عنه ومثل ذلك كى السليم من الابل أمام الاجرب ليبراً
٦ - ومن عقائدهم فى انيت أن يحتبسوا على قبره ناقة يربطون عنقها الى
ذنبها مع تغطية رأسها فلا تزال كذلك حتى تهلك أو تنجو باعتدال عنقها أو
افتكالك رباطها وكانوا يسمونها البلية ويسمون الغطاء الحشية ومن ذلك
قولهم «رأس البلايا فى الحشايا». وكانوا يزعمون أن القتيل اذا قتل
يخرج من رأسه طائر يدعى الهامة فلا تزال تقول «اسقوني اسقوني»
طلباً لثأره حتى يدرك ومن عادتهم هنا عدم البكاء على القتيل بما لم
يؤخذ بثأره

٧ - ومن عقائدهم فى المداواة تعليق الحلى على السليم وتسهيده سبع ليال ووضع
منخل على رأس من تصاب شفته بالحلى مع المرور به فى الحلى قائلين
«الحلى الحلى» وكذا تعليقهم للصبي سن الثعلب والهرقة وكعب الارنب دفعا
للنظرة أو الخطف ورميهم سن الاثقال فى عين الشمس لتبقى بخير منها
٨ - ومن عادتهم أيضاً وأد البنات للعار والاولاد للفقر وقد شدد الاسلام
النكير عليهما فى ذلك

٩ - ومنها ايقاد النيران وأشهرها نار القرى ونار الحلف ونار الهداية ونار
الحرب ونار الفداء وهذه للنساء خاصة

ومنها غير ذلك كثير كوطء المقلادة دم الشريف ليعيش ولدها. وشق الرجل
برقع محبوبته والمرأة رداء حبيبها لكيلا يفسد العشق وكى الاليتين
ليذهب. وذكر الرجل أحب الناس اليه ليذهب خدر رجله. ومسح الطارف
العين المطروفة سبع مرات لتسكن وهكذا مما يضيق المقام عن سرده فضلاً
عن شرحه فليرجع اليه فى مظانه على أنه سيأتي فى تدوين الشعر لاحوال
العرب الاستشهاد على كثير من هذا بعد إن شاء الله

وبعد

فقد آن لنا أن نشرع في الادب الجاهلى بعد الذى ذكرناه بمثابة المقدمات له .
غير أن ما جرى عليه بعض الباحثين فى هذا العصر من التشكيك فى وصوله
الىنا تشكيكا جعله فى نظرهم بعيدا عن الثقة والاطمئنان حملنى أن أصدر
القول فيه بكلمة ترد عليهم شكوكهم وبرهن على أنه محل ثقة واعتقاد كما حملنى
هذا الاغراب منهم فى التفكير طمعا فى الاتيان بجديد وان لم يك ذلك الجديد
بالمقبول أن أتبعها للرد عليهم أيضا بكلمة أخرى عن بحث لهم ثان ارتكبوا فيه
مثل هذا الشطط وأشد ذلك زعمهم أن الشعر أسبق الى الوجود من النثر .
فها تان كلمتان جعلتهما فى صدر الموضوع وان كانتا من أبحاثه فى الصميم .

الادب الجاهلي

أَلْنَا أَنْ نَطْمئنَ إِلَيْهِ نَدْرُسُهُ وَنَرْوِيهِ

ان لَنَا أَنْ نَطْمئنَ

(كانت العرب في جاهليتها أمة فصاحة وكلام ولسن وبيان لامطعن هنا) لطاعن ولا جدال ساقهم الى ذلك فطرة فطروا عليها من صفاء خاطر وذراية لسان وحفزهم اليه طبيعة عيش اقتضت منهم أَنْ يتغنوا ويرجزوا ويتفاخروا ويتمتعوا كظوا حتى كان الكلام بضاعتهم النافقة به تعمر أسواقهم ويتناقله عنها حداؤهم وربكانهم فيدوى في أرجاء جزيرتهم دوياء تهتز به رمالها ويضطرب له كل ذى حياة يعيش فيها ثم لا يلبث أن تضيق به جوانبها فاذا هو قد جاوزها الى الامم الاخرى وقديما كان لكل أمة سمة تعرف بها في غيرها [وسمة العرب الكلام].

كان طبيعيا اذن أن تقول العرب وأن تكثر من القول وأن يتناول ذلك عصوى الادب اللتين عليهما نهض من نثر وشعر كل في الغرض الذى من أجله كان وله درج ولكل مقام مقال. وكان طبيعيا مع هذا أن يتناقل السامعون كلام القائلين خلفا عن سلف ابقاء للاغراض التى قيل فيها ومحافظة على المآثر التى سجلها فاذا ماضى منا الى هاتين الطبيعتين ميزتين أخريين هما القدرة الفائقة

التي كانت معروفة للعرب على الحفظ واعتزاز كل قبيلة بمواد حسبها ومفاخرها
ضمننا بها أن تدول مضافا اليهما ما كانوا عليه جميعا من أمة جعلت دفاترهم
رءوسهم ودواوينهم حفظ أقوالهم) كان لنا أن نطمئن الى أن هذه المناقلة الكلامية
تبقى ما بقيت هذه العوامل ذات كون وثقة وتأيد حتى يطرأ على العرب ما يغير
هذه النواميس ويطبعاها على غيرها وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم
ولكن شيئا من ذلك لم يكن حتى جاء الاسلام

جاء الاسلام والجزيرة العربية تدوي دوى النحل قد ضل غيرانه بكل
مأثور من القول اعتر به حافظه وحرص عليه سامعه الى درجة لم يلهم عنها
الاسلام بحدته الاجل ودهشته العظمى فاستمروا من بعده طويلا يعقدون
عكاظهم ويسترسلون في مفاخرتهم ومنافرتهم وهل كان الاسلام الامتداد اليهم
في بابهم ومنازلا اياهم من واديههم وقد جعل آيته الكبرى القرآن الكريم يساجلهم
في الفصاحة ويحاجهم بالبلاغة ثلاثا وعشرين سنة حتى امتلك عليهم ناصيتها
واستل من ايديهم زمامها فألقوا اليه بقياد النثر وعكفوا هم على الشعر وهذه
احدى الدواعى التى جعلت مأثور الشعر أكثر من مأثور النثر كما سندكر
في محابتهما قلة وكثرة الى الطبيعة بعد

قد يقال كان للاسلام أن يغطى على القديم ويخذل الناس عن روايته
ولكن كيف وقد أودع تعاليمه وأحكامه كتاب الله وهو الذروة في البلاغة
وحديث رسوله وهو المقي له من بعده وليس من سبيل الى استمرار فهمهما
والحرص على عدم استغلاق معناها الا برواية لغة العرب والمحافظة على تفهم
مأثورها وهذا لعمرى داع دينى دعا الى الرواية والمدارسة منذ فجر الاسلام
وناهيك بالوازع الدينى وبخاصة فى ذاك العهد من حاث للهمم الى العمل ونائل
من النفوس مكانة التقديس والاجلال

حرص المسلمون اذن منذ جاء الاسلام على أدبهم حرصهم على دينهم وها هو ذا
عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى تفسيره القرآن الكريم كان يجلس له
 ولدراسة الادب فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتضرب اليه أكباد
 الابل من أقصى الجزيرة وأبعد منه لسؤاله عن معاني كثير من مفردات
 القرآن ومحامته فى معناها الى المأثور من كلام العرب فيروى فى ذلك الكثير
 من الاشعار وما بغائب عنا ما كان لنافع بن الازرق أحد رؤساء الخوارج إذ
 ذاك فى هذا الباب . ومن ثم كانت مذاكرة للادب القديم على عهد الخلفاء
 الراشدين بل وبالسنة بعضهم ثم هذا حذوهم فى هذا وبشكل أوسع دائرة
 وأبعد مدى ملوك بنى أمية فكانت مجالسهم مثاراً للادب يسوق اليه الاستمتاع
 واللهو والتسلى والقصص أو المفاخرة والمنافرة والخصومة واللد الى ما كان
 قائماً بجوار هذا فى البداية مما استمر تظهر صورته بعكاظ طويلاو بمربد البصرة
 الذى خلقها إذ ركبت ربحها بل بسائر المجالس والمنتديات ومن هنا نشأت
 الرواية بالمعنى الاصطلاحي وكثر الرواة ولم يكمد كاهل هؤلاء بثقل بالحفظ
 والتعليق حتى انتشرت الكتابة وكان التدوين فرغ عنهم ما أثقلهم وجعلهم
يوجهون جهودهم الى ما صمدوا له بعد من البحث والتحقيق

هذه طريق لا عوج فيها ولا أمت درج فيها الا دب الجاهلى حتى وعته
 بطون الكتب فاذا بالكلم الذى وصل اليها منه خاضع فى مقاديره لما يقتضيه
 العقل وتطلبه سنة البقاء . فالشعر وقد صار هم العرب وحده لما تقدم من غزو
 القرآن النثر غزوة قللت من شأنه وصرفت الازهان عنه قد حفظ منه أكثر
 مما حفظ من النثر الذى درس معظمه قبل أن يتصل بطبقات الرواة والواصلنا
 منه ما تنفذ دونه الصحف وتحف المحابر لانه للجماعة والشعر لافراد على أن

من الاسباب الداعية الى قلة مأثورة أيضا ما هو سابق للإسلام اذ لاشك أنه أصعب من الشعر حفظا وأبعد استذكارا وهذه نظرية خضع لها النثر في أقسامه كما خضع لها أمام الشعر في جملة فمكان أكثره رواية أيسره حفظا إما لقلة ألفاظه وصغر صوره كما في الحكم والأمثال التي سهل على اللسان تردادها وكانت الحوادث تدعو الى استعمالها فوصل منها أكثر مما وصل من غيرها بينما يجزم العقل أنها لا بد كانت قلة في كثرة ونقطة في لجة لصعوبة معالجتها وندرة الاشخاص القديرين عليها واما لانه مع طوله تقرب الى الشعر قليلا بالازدواج أو كثيرا بالسجع فكان في ذلك الاتزان في التقسيم والتوافق في التقفى ما جعله سهل الحفظ على الذهن شديد الاعتلاق بالنفس ومن ثم نجد المروى من المسجوع أكثر من المزدوج وهذا أكثر من المرسل مع أن الطبيعة التي يخضع لها صدور الكلام تأبى إلا العكس ولاكن ما قيل شيء والذي روى شيء آخر ومن ثم أيضا لم يصلنا عن الجاهلية من الكلام المرسل إلا القليل مع أنه كان الغالب الكثير ولولا أسباب خارجة عن كنهه الواصل قد حملت على روايته لباد كما باد سائرته فتعزية أكثرهم بن صيفي حكيم العرب لا أحد ملوكها في أخيه وهي رسالة وكلمة قبيصة بن نعيم رئيس وفد بني أسد الى امرئ القيس عقب مقتل أبيه وهي رسالة أيضا وفيها بعض ازدواج لولا مكانة الحادئين ومن قال ومن قيل له لعفتا فيما عفا وزالتا فيما زال ولمثل هذه الاسباب الخارجة كان المأثور في السجع عن الكهان أكثر من غيره لغرابة موضوعه واتصال بعضه بالعقيدة مع ما فيه من اطالة التقفية وهذا حكم فيه ان لم يصدق كما صدق نسبة .

أبعد هذه الطريق التي تكتنفها الطبيعة ويسايرها العقل يطعن في الادب

الجاهلى ويرمى كله بالوضع والاختلاق لتوافه زادها فيه بعض الدسائين
 وأساطير وضعها عليه بعض القصاصين ومطاعن وجهت الى آحاد في جمهرة
 الرواة ثم يدعى بجرأة الى دراسته في صدر الاسلام وعصر بنى أمية كأن الزمان قد
 وقف وكأن شيئا من احداث الاسلام المنزل لم يك كان . ان هذا لاجحاف
 بالتفكير وظلم للعقول فالادب الجاهلى كثرة تتضاءل أمامها تلك الزعانف الموضوعة
 وصخرة تتكسر عليها هذه التفافات الطائفة على انها اذ ألصقت به وهو منها
 براء لم يتلبس الامر فيها على رواته بل مازوها ميز الخبيث من الطيب ووسموها
 بميمم الزيف أمام الجيد الصحيح عرفوا ذلك شفاها حيث كان مرجع الادب
 الحفظ ثم دونوه واضعين أمامه أدلة التزييف حين التدوين فما بال المدعين هذه
 الدعوى ينسبون اليهم تجديدًا ويدعونها ابتكارًا وآثار أقلام الاقدمين من
 أكثر من عشرة قرون تكاد تخرج اليهم من بطون الكتب فتسود عليهم صفحات
 وجوههم من هول ما يقولون *

أكان ما يقولون حقًا ولم تظن اليه الشعوبية في القديم وقد مكثت قرونا
 تعير العرب ما شاء لها التعبير فتتلمس في كمالها نقصًا وتجعل ما تظفر به من الحقيقير
 عظيمًا ثم لا تهتدى الى أن خير ما تفيخر به العرب وهو قديم أدبها ليس لها وإنما
 هو شيء انتحلته زورا وادعته بهتانًا فتقف أمام ذلك لا تقدم رجلا ولا تحير
 جوابا بينا يكفيها نقضه وحده مئونة الكد المتعب والكدر المضحى ألا انها
 وفقت لاعتن خفاء وغيب واكن أمام نور بهرها وسلطان قهرها لم يكدي لصق
 به كلف من ظلام او ينسب اليه زيغ من ضلال حتى ديزه ذووه ورموا به
 بعيدا مزجر الكلب ومنبذ النواة ولقد كان من الرامين النابدين بعض
 الشعوبيين .

وأكان مايقولون حقاً ويتركه في الحديث جمهور المستشرقين دون أن يخوضوا فيه بالتجريح والتخديش فيسودوا ناصع بياضه ويصيبوه في قدسه وجلاله بدل أن يرووه ويخدموه ويعترفوا به اعتراف من قهره الحق وأنطقه الواقع ثم يخرجوا من هذا بنتائج عن العرب قد يسوءهم تدوينها أولاً يرتاحون الى اثباتها فعلوا ذلك ولم يشذ عنهم الا من أضله الله على علم فشاج التعصب الديني وزحف الى الطعن في دين العرب من طريق الطعن في أدب العرب فأخذ ما ميزه الرواة لينبذ فأثبتته وما فخصوا عنه ليستبعد فقربه ومع ذلك لم يشايه بنوجنسهم ومنهم بعض رجال الدين وإن للحق لأنصارا حيث تظن الظنون وتوقع الخصوم

وإذا كان الأدب الجاهلي كله دسا وتخيلاً فما هو اذن الأدب الذي كان يروى في صدر الاسلام والدولة الاموية قبل أن يخلق الدساسون أمثال حماد الراوية في النصف الاول من القرن الثاني وخلف الاحمر من بعده في نصفه الاخير. وهلا اذا كان الدس يقع جزافاً وبغير حساب كان الاولى بالداسين أن يستكملوا لنا مواضع نقص في أدبنا كانت ولما نزل فاعرة فاها حتى يكون ذلك أسوغ لقولهم وأستر لدسهم كأن يدسوا بعضاً من خطب على رجال جاهليين ضرب المثل بفصاحتهم في الخطابة وكانوا فيها حكماً وعلى أهلها قواماً وليس للواحد منهم في المأثور شيء أوله ما لا يتعدى الكلمة والكلمتين أليس لأن الامر لم يك كما يتخرون فوضى سهلاً لا ضابط له ولا رادع عنه وهل يقبل منا أن نمرر المدسوس على رجال النقد وأرباب الكلام في عصور التدوين والتأليف ثم نزعهم لا نفسنا الآن أنابه أعرف ولم أميز وهل ميزنا غير ميزوا الا ما سقناه قولاً بلا حجة ونتيجة من غير مقدمة

ثم يقولون إن اختلاف الرواية دليل على الدس والله نشهد أن الروايات
في عهد يقع الاعتماد فيه على الحفظ وحده دون كتاب يسند أو نقش يؤيد لو
اتحدت ولم نر فيها ما رأينا من خلاف هو الطبيعي المعقول لكان لنا أن نتخذ
الاتفاق دليل الدس فكيف يتخذ الاختلاف دليلا علينا وهو لنا ويساق
ضدنا وهو حجتنا

آن للمجددين بالمعنى الذى يقحمون فيه كلمة التجديد لا بالمعنى الذى نحترمه
نحن أن يرعوا للقديم عهده وحق البحث حرمة وألا يتجاوزوا فى الأدب
الجاهلى ميز المدسوس عنه الى نقضه من أساسه فانهم اذا نقضوه وما هم بالغيه
ثم عادوا بعد ذلك يبنون وقع بناؤهم على غير أساس فاذا ما نقضوا فيه وصوروه
وتساندوا اليه فأقاموه لا يلبث أن يخونهم وينهار « فأما الزبد فيذهب جفاء
وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال »

المنثور والمنظوم

أيهما أسبق إلى الوجود

أنا نقول بسبق النثر على الشعر

أظنه من الملائم في هذا المبحث أن يعرض المتصدي له أولا وقبل كل شيء للمعنى العام الذي يفهم من كلتا كلمتي نثر ونظم حتى إذا ما جلاه وأبان عنه وجعل الفارق بين المعنيين واضحا ملموسا عمدا إلى هذا الفارق يحاكمه إلى الطبيعة ويستهديه القول فإذا هو الحكم الفصل والحق المبين . وأظنه من السهل محاولة ذلك مادامت كل كلمة في ظاهر لفظها تمدنا بالمعنى الذي ينبغى أن يكون الوجه في التفرقة والعامل على التمييز وأن ماعداه من مدلولات ليس إلا ضمام متممة مهما انحازت الى أحد الجانبين وظهرت فيه بمظهر المختص الملائم لا تعدو أن تكون شركة بينهما غير ناهضة وحدها أن تصلح فصلا . فما هو ذلك المعنى البارز الذي ^{٨٢}تحملة كل كلمة والذي من أجله قدمنا تلك المقدمة وله صدرنا هذا التصدير هو بلا اجتهاد في الفكرة ولا اطالة في التعبير أن يتأزم الشاعر في شعره وزنا وقافية يجعلانه مقيدا منظوما ويتحرر منها النثر فيجى كلامه مطلقا منشورا ^{٨٢}واذن النثر أبسط من الشعر وفي الشعر كلفة ليست في النثر والنثر أقرب منالا ورجاله أكثر عددا والشعر أصعب محاولة والشعراء آحاد في أوساط الناس وهنا نسأل نواميس الطبيعة والكون وعوامل الذشوء والارتقاء أيهما لذلك يجب أن يكون أسبق كونا وأقدم وجودا فيكون الجواب لا محالة ما أجبنا به آنفا من أن النثر أسبق من الشعر

وليس انحيازنا في التفرقة بين النثر والشعر الى جانب اللفظ دون المعنى لانا
 لانعاباً بالمعاني أو لانا نسوى بينهما فيها فما يجهل أقل اللامين بالادب أن الشعر
 يعتمد على الخيال أكثر مما يعتمد على الحقيقة وأنه يستوحى الشعور أكثر مما
 يستوحى الفكر على عكس النثر فيها ولاكن متهما أغرقنا في التفرقة المعنوية
 فليس في استطاعتنا أن نباعد بين الخيال والنثر ولا بين الشعر والحقيقة فك
 نثر أو غل من شعر في التخييل والتصوير والتعبير عن الوجدان والشعور وكم
 شعر هو وعاء الحكمة والفلسفة وأدخل في باب التفكير منه في باب الخيال انما
 انحزنا إلى جانب اللفظ للابانة عن وجه التسمية بالنثر والنظم وأما لم تك عبثاً
 ولم تأت اعتباراً انما وضعها الواضعون عن بصيرة وفكر لتكون خير دهر عن
 الفارق وأوضح مترجم عن التمييز نعم عطف الواضعون على النظم فوضعوا له
 اسماً آخر هو الشعر اشارة منهم إلى أن الوزن والتقنية وان وقعت بهما المفاصلة
 والمخالفة ليسا وحدهما المكونين للشعر بل لابد أن يغلب على دعناه الشعور حتى
 يكون اغترافه من ينابيع العاطفة والخيال أكثر مما يغترف من ينابيع الحقيقة
 والتفكير .

يقولون المخالفون في الفكره إذا كان النثر أسبق من الشعر فما بالنا نجد للامم
 القديمة شعراً ولا نجد لها نثراً ولاكن فاتهم أن تلك قضية لا نفهمها كما أصدروها
 ولا نستطيعها كما هيئوها الا إذا سلمنا لهم بقضيتين أخريين كلتها بعد عن
 العقل من الاخرى

فأما أولاهما فانهم يعنون بالأمم القديمة أول ما يعنون اليونان والرومان
 فيمنون عنهما النثر ويستبقون الشعر كأنما كل افراد هاتين الامتين أو أفذاذها
 كانوا شعراء وكانما لم تهيء أحوالها الطبيعية — والاولى أمة فلسفة ومنطق

والثانية أمة تقنيين وتشريع ثم هما دعا أمتا حكم وفتوح — أحدا من رجالهما
ليدافع عن فكرة أو يعمل لقانون أو يدعو إلى حرب وقاتل. دلا كن الأسير
مع العقل والاطوع للفكر أن يقولوا كن لهما نثر وشعر واكن الشعر كن
قليلًا والقليل محروص عليه فوعته الافهام وتناقضته الرواة في وقت تنفثو فيه
الامية وتندر أو تنعدم الكتابة التي لا يتسع لقيد النثر سواها ثم الشعر مع ذلك
أسير حفظًا وأكثر ذبوعًا نعم كن لهم أن يقولوا ذلك فيقبل القول ويستقيم
الاستنباط ويكونوا منطقيين كما يدعون

وأما الثانية فانهم يريدوننا على أن العرب في جاهليتها لم يك لها نثر وأن
ما أثر عنها موضوع مخنق وهذا لعمري تهجم على العقل ومطالبة لنا أن نكون
أمامهم أشباح أناسي لا أناسي ذوى عقول والا فكيف لم يك للعرب في جاهليتها
نثر وقد تحداهم القرآن الكريم في النثر ووصفهم بأنهم كانوا قومًا لدا واللد في
اللغة شدة الخصومة والحاجة تمشيا مع ما هو مقرر معروف من أن التحدى
لا يحتفظ بكيانه ولا يكون له قوامه الا اذا وقع لكل أمة في الباب الذي تزعم
فيه نبوغا وتدعى لنفسها عليه قوة واقتدارا وإذا كان الامر هنا كما يقولون
أفما كان الاجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلت سائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع
فيها الى ذروة الفصاحة كما ارتفع حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر وقد نزل لهم
على الانتفاع بما حواه ثم يلتمس النبي للتحدى منحنى آخر غير الفصاحة والبيان
وإذا أبي الخالفون إلا الفصاحة والبيان فان في مقدورنا مجارة لهم أن نقول
كان ينبغي لذلك أن ينزل القرآن شعرا لا نثرا لانهم لازالوا يدينون لبعض
الجاهليين بالتمردة على قول الشعر لولا أن في تلك المجارة هدمًا لما لا يرتضى ولا
يرتضون فقد جرد الله نبيه من أن يكون شاعرا كما جرده من أن يكون قارئًا
وباعد بين القرآن والشعر فأعجز به منشورا أمة ذات قدرة فائقة على النثر

وقد أثر عنها فيه ما يؤيد تلك القدرة ويشهد بها ولكن ضاع معظمه وبقي القليل خضوعا لسنة الكون في الاضاعة والابقاء فلا محل اذن للشك في هذا القليل انما الوجه في الشك يكون إذا كثر أو باد

ويقولون أيضا إن في عوام الأمم الحديثة من يقول الشعر بلغاتهم بينما لا يحسن أحد منهم النثر وهذا قول نسلم بشرطه الاول دون الثانى فان من يختلط بطبقات العوام ويرقب عن كذب مجرى أحاديثهم ومحاوراتهم يجد فيهم كما نشهد في عوام المصريين مثلاً سماراً تدار حولهم الحلقات وترهف اليهم الاسماع فلا يزالون يلقون من عذب الحديث وجميل القصص ما لو كان هناك تدوين للغتنا العامية لكان في الذروة من نصوصها والقمة من آدابها . وان في تراشق امرأتين تختصمان في أحقر الازقة وأدنى الحارات لروعة لهذا الخصام وقوة بيان لمناحيه لا تنقل عن مثيلاتها في محاوره أو منافرة مما دون اللغة مثلاً لقوة العارضة وآية على الاقتدار . وهل تجردت حياتنا العامة من حوادث تدفع ذا رعاية ورياسه أن يحرض ويستنهض أو يخوف ويسترجع وذا قرابة ولحمة أن يوصى ويرشد ويعظ ويذكر أم هل خلت عاميتنا من حكم وأمثال تضارع في قوة المعنى وشدة الایجاز نظائرها القديمة وتحتل من قلوب السامعين الآن ما كانت تحتله تلك في القديم بل لم تخل في نثرها من شيء هو لنثر أختها العربية ولكن كثرته واتتدار السواد عليه صرف الازهان عن تناقله وروايته إلى شعرها الذى خلا من كثير مما حواه الشعر الصحيح فقل قائلوه واستخدم دون النثر فيما كان أبقي له وأدعى إلى حفظه من حذاء وغناء مع ما في طبيعته فضلاً عن تلك الحاجة وهذى القلة من سهولة الحفظ وسرعة الاستذكار

ثم هم يقولون ان الشعر وجد قبل النثر وحين ضاقت أوزانه عن مظاهر العقل تحول الانسان منه إلى الشعر ومعنى هذا ان كانت لنا عقول ان العقل

الانساني في طفولته كان قديرا على أن يعبر عما يريد بهذا الكلام الموزون المقفى ولاكنه بعد أن ترقى وجاوز دور الطفولة والادوار التي أعقبته فتم نضجه واستوى ارتد عاجزا عما كان عليه قديرا ولجأ في تعبيراته إلى الكلام المطلق من قيد التقفية والوزن . ياله حكما عليه من أولئك المخالفين إلا أن يعاند الطبيعة وما اتفق عليه الناس مرغمين دون أن يكون لهم إلى الخلاف فيه لو أرادوه سبيل ولسنا ندرى أيدكرون نتيجة لهذا أن الانسان خاق متحضرا ثم تبدى أم يزعمون أن اللغة وحدها شذت عن هذا الناهوس العام أو أن الشعر على فرض سهولة التقفية والوزن خلو من كل منطق وتفكير . الحق أنا لا ندرى عنهم ماذا نقول . فالشعر بالغا ما بلغ من تصور وخيال لاغنى له في ذلك وفي مراعاة وزنه وقافيته عن عقل يسدى وفكر يهدى فما بالناس اذا كُن بالفسفة ناطقا ولادق نزعات العقل مصورا وقديما شبهوه بالدر المنظوم وما كان النظم بغير مجهود وتدبير وقالوا ان من الشعر لحكمة وما خلا منها منذ عرف في سالف الحقب وسابق الزمان

بقيت قالة أخيرة حملهم عليها التسليم ببعض الواقع هي قولهم إنا نقصد بالثر المسبوق بالشعر الثر الفنى ولاكنهم في عجز أو تعاجز عن تحديد هذا النوع الذى يريدون لانهم ان أرادوا بالفنية الاجادة التي نطالعمها في أنواع المنثور هن حكمة ومثل وخطبة ووصية ومفاخرة ومنافرة على أن يسلّموا للجاهليين في ذلك بما هو مأثور قلنا لهم إن الثر قد بلغ اذن قبل الاسلام درجة لا تقل في مداها وقوة فصاحتها عما وصل اليه الشعر إذ ذاك وأن تلك الدرجة ما كانت لتكون دون أن يضرب الثر في القدم إلى قرون ينعدم فيها الشعر أو يكون طفلا يحبو بينا الثر قائم يجرى على قدمين هذا إلى ما قدمنا من السنة القاضية بسبق البسيط على المركب والبسير على العسير وما تلا ذلك من مناقشة ما يقولون

فان انكروا هذا المأثور كما يدعون رددنا عليهم ذلك الانكار بما لاسبيل لهم معه إلى كلام لانهم يعترفون بما ورد عن صدر الاسلام من كل هذه الانواع ثم يعترفون مع ذلك بما لها من فنية فائقة على هذا الاعتبار ضاربين المثل بكلام رسول الله والصحابة وكثير من المخضرمين فهل كان هؤلاء جميعا قبيلا الاسلام من الفهاة بحيث يزعمون ثم انقلبوا بين عشية وضحاها نثرين مهمرين ؟ انا ننتظر منهم الجواب. أما إذا حددوا الفنية بالكتابة وأساليبها وصناعة الانشاء ونظمها مما يسوق اليه تحضر الامم ويدفع به تقدم العمران فانهم ينصرفون بذلك التحديد إلى ما انصرف اليه الناس واذن فلا جدة ولا خلاف و-كن ذلك لا يرضيهم لانهم يأبون في هذا شأنهم في غيره إلا أن يكونوا مجددين وذوى خلاف

النثر الجاهلى

أقسامه وأنواعه

إذا تتبعنا مادة المنثور الجاهلى لنرى كيف تتألف ألفاظها وتترابط أجزاؤها نجد أن منها ما تحرر من كل قيد فأطلق النثر الكلام فيه اطلاقاً وأرسله ارسالاً ومنها ما فصله جملاً يزواج بين كل اثنتين أو أكثر منها ومنها ما أضاف فيه إلى هذا الازدواج اتحاد التقفية فى الفواصل فهو اذن ثلاثة أقسام قسم خلا من الازدواج والتقفية هو المرسل وآخر كان فيه الازدواج فى الفواصل دون التقفية هو المزدوج أو المفصل وثالث ضم إلى الازدواج والتقفية هو المسجوع ولا حاجة بنا بعد الذى تقدم فى سبق النثر على الشعر أن نقول هنا إن المرسل لابد وجد قبل المزدوج وهذا تقدم المسجوع فان ذلك من الضرورى المفهوم انما الحاجة أن نقول إن السجع احدى الحلى اللفظية ذات التأثير البين إذا جاء عفواً غير متعمد ولذا ألزمه الكهان والعرافون وأطالوا فيه لحسن وقعه على الاسماع وشدة تأثيره فى الطباع وسيوضح كل هذا فيما سنسوقه من نماذج لأنواع النثر فله أنواع كما للشعر فنون هى الحكم والأمثال. والمفاخرات والمنافرات. والخطب والوصايا. وهماهى ذى

١ — الحكم والأمثال

الحكمة قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به. والمثل قول محكى سائر يقصد منه تشبيه الذى حكى به بالذى قيل لاجله وهما صورة للكلام تصل إلى

الغاية القصوى في البلاغة من حيث إيجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن البيان
فترتاح اليها الطباع وتنشط لحفظها النفوس وتميل إلى الاحتجاج بها العقول
لانها تورث الكلام رواجاً وتكسبه حسناً وقبولاً. وكما تكون الحكم والامثال
نراً تقعان شعراً واكثرهما في النثر أو في عددنا وأكثر دورانا ولذلك عدا
من أنواعه لامن فنون الشعر

ولقد فاضت الحكمة على ألسنة الكثيرين من العرب لما أفاض الله على هذه
الامة في بداوتها من سلامة الفطرة ورجحان الفكر فكثرت فيهم العقلاء الذين
تفجرت ينابيع الحكم على أيديهم فعرفوا بالحكماء وانصاع اليهم السادة والاشراف
للتقاضى في المنازعة وفض المنازعة في الخصومات فكان قولهم مرضيا وحكهم
حكما مقضيا نذكر منهم على سبيل التمثيل أكرم بن صيفي التميمي وعامر بن الظرب
العدواني

فأكرم كان من حكماء تميم وحكامها ذا فصاحة وبيان وعلم بالآء نسب
والاخبار ومن حكمه. ويل للشجى من الخلى ، ويل لعالم أمر من جاهله ، مقتل
الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقا ، فى طلب المعالى يكون
العناء ، لم يذهب من مالك ما عطفك ، يشابه الامر إذا أقبل فاذا أدبر عرفه
الكيس والاحق ، نعم هو المرأة المغزل . وقد كان جل كلامه فى المجمع
مبنيا على الحكمة وضرب المثل كما هى الحال فى خطبته أمام كسرى فى وفود
العرب وفى وصاته لقومه حين ظهر النبى صلى الله عليه وسلم ولبنيه حين حانت
وفاته فقد جاءت كلها ملائى بالحكم الناصغة والعظات البالغة

وعامر كان من حكام قيس وذوي المكانة فيها ومن كلامه. رب أكلة تمنع
أكلات ، رب زارع لنفسه حاصد سواه ، الرأي ناعم والهوى يقظان ،

ويل آملها نصيحة لو كان من يقبلها ، من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعها له وكان الباطل أولى به ، من طلب شيئا وجده وان لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه ، إن مع السفاهة الندامة والعقوبة نكال وفيها ذمامة ، لو كان يميت الناس الداء لأحياءهم الدواء

ويوجد غير هذين حكماء كثيرون وحكميات كغيلان بن سلمة الثقفي وربيعة بن حذار الاسدي وسامى بن نوفل الكنانى وعمرو بن حممة الدوسى وذى الاصبع العدواني وكهند بنت الخس الايادية ، وحذام بنت الريان اليمنية. ومن أقدم حكماء العرب لقمان وينسب اليه من الحكم. رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكى. ولكن العبرانيين ينازعون العرب فيه ويدعون له لا أنفسهم ويروون له حكما فى كتبهم وليس لأحد الطرفين دليل حاسم ضد الآخر كما أن كثيرا من الحكم نسبت اليه على سبيل الشهرة لا التحقيق لمحيئها غفلا من النسبة إلى ذويها ولصعوبة القطع فى معظم الحكم بنسبتها إلى قائلها لكثرة تردها على اللسان وتداول الاستشهاد بها فى الكلام

هذا وكما كانت العرب قديرة على قول الحكم كانت كذلك وأقدر فى ضرب الامثال فليس بينهما من فرق سوى أن المثل لا بد فيه من أصل واقع ينقل عنه وقد يفرض له ذلك الأصل فرضا إذا صدر عن حيوان أو نبات أو جماد وتعرف أمثال النوع الاول بالحقيقية والثانية بالفرضية . والامثال بنوعها مرعاة تريثا أحوال الامة فى كثير من نواحيها وميزان وزن به إلى قدر أدبها ولغتها ورقبها وانحطاطها

ولقد عنى السلف عناية كبيرة بتدوين الامثال. ومن خير ماوصلنا فى هذا الباب جمهرة الامثال لابي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وجمع الادثال لابي الفضل الميدانى المتوفى سنة ٥١٨ هـ وهو أنظمها وأوقاها فقيه أكثر من

سنة آلاف مثل رتبت على حروف المعجم وفي آخر كل باب منها ما جاء على
أفعل للعرب ثم للمولدين وهذا بعض من كل نوع

الامثال الحقيقية

١ — تجوع الحرة ولا تأكل بشديها . يضرب في صيانة الشخص نفسه
عن خسيس الكسب وهو للحارث بن سليل الاسدي يقوله لامرأة
تزوجها على كبر منه وهى شابة فلما بنى بها بكت فقال المثل
وطلقها .

٢ — الحديث ذو شجون . يضرب للقول يحجر بعضه بعضا وقائله
أد بن طابخة

٣ — سبق السيف العذل . يضرب للفائت يستحيل تداركه وقائله ضبة
ابن أد بن طابخة

٤ — ما يوم حليلة بسر . يضرب في كل أمر متعارف مشهور وقائلته
حليلة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني وكان أبوها وجه جيشا
الى المنذر بن ماء السماء اللخمي فأخرجت للجنود طيبا طيبتهم به وكان يوما
مشهودا فقالت المثل

٥ — قطعت جهيزة قول كل خطيب . يضرب لمن يقطع على الناس ما هم
فيه بحماسة يأتي بها وسببه أن قومه اجتمعوا يخطبون في صلح بين
حين قتل أحدهما من الآخر قتيلًا ويسألون الرضا بالدية وبينهم
في ذلك جاءت أمة يقال لها جهيزة قائلة (إن القاتل قد ظفر به بعض
أولياء المقتول فقتله) فقالوا عند ذلك هذا المثل .

٦ — إن أخاك من وإساك . يضرب في الحث على مراعاة الاخوان وقائله
خريم بن نوفل الهمداني .

٧ — ان العوان لا تعلم الخمرة . يضرب للعالم بالامر المجرب له والعوان المرأة النصف بين الفارض والبكر والخمرة هيئة الاختمار وهو لبس الخمار

٨ — ان خيرا من الخير فاعله وان شرا من الشر فاعله : يضرب في الحث على فعل الخير والبعد عن الشر وقد ورد على لسان واعظ لعمره ابن هند

٩ — ان غدا لناظره قريب . يضرب في الامر يرجي قرب وقوعه وقائله قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر حين قال له ما أراك الاها الكا غدا فقال المثل

١٠—١٩ هذا وقد تستتبع الحادثة الواحدة ضرب أمثال عدة ومن أجمع الحوادث في ذلك ما روه في أصل المثل (ثكل أرامها ولدا) من أن رجلا يقال له بيهس كان سابع سبعة إخوة فأغار عليهم ناس بينهم وبينهم حرب في ابل لهم فتمتلوهم الا بيهس هذا تركوه لانه كان يحمق وكان أصغرهم ولم يشاءوا أن يحسب عليهم رجلا ثم انهم نحروا جزورا وكان اليوم قائظا فقالوا ظللوا للحكم لا يفسد فقال بيهس (لكن بالاثلاث لحم لا يظلل) فذهبت مثلا ولما أخذوا يشوون ويا كلون قال أحدهم ما أطيب يومنا هذا وأخصبه فقال بيهس (لكن على بلدح قوم عجفي) فذهبت مثلا ثم أتى بيهس أمه فأخبرها الخبر فقالت وما أتى بك من بين اخوتك فقال (لو خيرت لاخبرت) فأرسلها مثلا ولما أخذت أمه تعطف عليه وترق له قال الناس لقد أحبت أم بيهس بيهسا فقال (ثكل أرامها ولدا) فذهبت مثلا ثم ان أمه أخذت تلبسه ثياب اخوته فيلبسها ويقول

(حبذا التراث لولا الذلة) وهذا مثل أيضا وحدث أنه مر على نسوة يصلحن عروسا لاهدائها إلى بعض قتلة إخوته فرفع ثوبه حتى غطى رأسه فقلن له ويحك ما تصنع يا بيهس فقال (البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها) فذهبت مثلاً ثم انه جلس مرة يأكل وحده ويقول (حبذا كثرة الايدي في غير طعام) فأرسلها مثلاً وقالت أمة لا يطلب هذا بثأراً أبداً فقالت لها امرأة سمعتها (لا تأمني الاحق وفي يده سكين) فذهبت مثلاً ثم انه علم أن أناساً من أشجع ومنها قتلة إخوته في غار فجاء إلى خال له يدعى أبا حنش فقال له (هل لك في غنيمة بارده) فأرسلها مثلاً ثم انطلقا حتى اذا كان على باب الغار دفع بخاله وقال ضرباً أبا حنش فقال من في الغار ان أبا حنش ليطل فقال أبو حنش (مكره أخاك لا بطل) فذهبت مثلاً كان العاشر في هذه الحادثة

الامثال القرضية

١ - كيف أعادوك وهذا أثر فاسك . تزعمه العرب على لسان حية كانت في واد فنهشت رجلاً فقتلته فذهب أخوه ليقترض منها فعاهدته على أن يتركها وتعطيه كل يوم ديناراً ومكثا على ذلك دهراً ولما أئثرى الرجل ذكر أخاه وصمم على قتل الحية واكمنه لما ضربها بفأسه أخطأها وأثرت الفأس في باب جحرها ثم انها قطعت عنه الدينار فندم فقال لها هل لك في أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه فقالت (كيف أعادوك وهذا أثر فاسك) فذهبت مثلاً يضرب لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره

٢ - انما أكلت يوم أكل الثور الابيض . يروى على لسان ثور من ثلاثة أبيض وأسود وأحمر كن في أجمة ومعين فيها أسد لا يقدر على أحد منهم لا اجتماعهم فقال يوماً للأسود والأحمر لو تركتماي أكل الابيض لصفت لنا الاجمة لأن لونه مشهور يدل علينا فقالا دونك فكله فأكله

وبعد أيام قال للأحمر لوني لونك فدعى آكل الاسود لتصفو لنا الالجمة فقال دونك فكله فأكله حتى إذا كانت أيام أخر قال للأحمر اني آكلك لالمحالة فقال ولكن دعنى أنادى ثلاثا قال افعل فنادى (إنما أكلت يوم أكل الثور الابيض) فأرسلها مثلا يضرب لمن يسلم في أعوانه فيكون في هذا التسام هلاكه

١١-٣ هذا ومن الحوادث الفرضية ما يستدعى صدور جملة أمثال كما تقدم في الحقيقة ومن ذلك ما تزعمه العرب من أن أرنبا التقطت تمرة فاختلسها الثعالب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الارنب يا أبا الحسل قال (سميعا دعوت) قالت أئيناك لنختصم اليك قال (عادلا حكما) قالت فاخرج الينا قال (فى بيته يؤتى الحكم) قالت اني وجدت تمرة قال (حلوة فكليها) قالت فاختلسها الثعلب قال (لنفسه بغى الخير) قالت فلطمته قال (بحقك أخذت) قالت فلطمنى قال (حر انتصر) قالت فاقض بيننا قال (قد قضيت) ثم قال (حدث حديثين امرأة فان لم تفهم فأربعة) فهذه تسعة أمثال على لسان الضب يضرب كل منها فى مثل ما قيل لاجله وهى مروية فى مضرب المثل (فى بيته يؤتى الحكم) وفى هذا القدر من الامثال كفايه

٢ — المفاخرات والمنافرات

المفاخرة كلام يجرى بين اثنين أو أكثر أو على انفراد تمدحا بالخصال ومباهاة بالاصول وكان للعرب بها ولع شديد وافتنان كبير لانهم كانوا قبائل وبطونا بينهم من التناحر والتناز ما أجح فيهم نيران الحروب وجعل كلاء على تمام علم بما آثره ومخازى سواه فتناولهم النزوع إلى المفاخرة من القمة إلى القاع

فما بينهم وبين غيرهم من الأمم كالفرس والروم وبين أنفسهم في يمن
ونزار ثم في ربيعة ومضر وفي بكر وتغلب من ربيعة وقيس وتيمم من مضر
وكذلك بين قبائل اليمن بعضها وبعض وهكذا لم يزل يتغلغل التباخر في بطونهم
وأفخاذهم حتى تناول ابن العم في العشيرة الواحدة فكان على أشده وفي منتهاه.
وكانت المفاخرة نوعا متميزا من أنواع المنشور وكالمفاخرة المنافرة وهي مثلها
وأشد في هذا الباب كان الرجلان إذا تنازعا الفخر وادعى كلاهما الفوق على
صاحبه نفرا إلى حاكم يرضيانه ليقضى بينهما فمن فضله على صاحبه كان
له غم الحكم وعلى صاحبه غم الجعل المفروض من الابل أو غيرها وكلا
النوعين كثير الامثلة والوقائع

فمن المفاخرة ما روى من أن كسرى قال للنعمان بن المنذر يوما هل في العرب
قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال فبأي شيء قال من كانت له ثلاثة آباء متواليه
رؤساء ثم اتصل بكما الرابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب اليه قال فاطلب ذلك فطلبه فلم
يصبه إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وآل حاجب بن زرارة التميمي وآل بسطام
ابن قيس الشيباني وآل الأشعث بن قيس الكندي فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من
عشائره عند كسرى وقال ليتكلم كل رجل منكم بماثر قومه وليصدق فكان
حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم وكان ألسن القوم فقال قد علمت العرب
أن فينا الشرف الاقدم والعز الاعظم وماثر للصنيع الاكرم فقال من حوله
ولم ذاك يا أخا فزاره قال ألسنا الدعائم التي لا ترام والعز الذي لا يضم قيل له
صدقت ثم قام الأشعث بن قيس قبل ربيعة وتيمم لقرا بته من النعمان فقال قد علمت
العرب أنا نقاتل عديدها الاكثر وزحفها الاكبر وأنا غياث الكربات ومعدن
المكرمات فقالوا ولم يا أخا كندة قال لانا ورثنا ملك كندة فاستظلمنا بأفيائه

وتقلدنا منكبه الاعظم وتوسطنا بحبوحه الاكرم. ثم قام بسطام بن قيس فقال
قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذى لا يزول ومغرس عزها الذى لا يحول قالوا
ولم يأخا شيبان قال لانا أدركهم للثار وأضربهم للملك الجبار وأقومهم للحكم
وألدمم للخصم. ثم قام حاجب بن زرارة فقال قد علمت العرب أنا فرع دعامتها
وقادة زحفها قالوا ولم يأخا تميم قال لانا أكثر الناس عديدا وأنجبهم طراوليدا
وأنا أعطاهم للجزيل وأحملهم للثقل وبعدئذ قام قيس بن عاصم السعدى فقال لقد
علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات دعائم وأثبتهم فى النائبات مقادهم قالوا ولم
يأخا سعد قال لانا أدركهم للثار وأمنعهم للجار وانا لاننكل اذا حملنا ولا
نرام إذا حللنا. فقال كسرى حينئذ : - ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه وأسنى
حباءهم وأكرم ما بهم

ومن المنافرة ما كان بين خالد بن مالك النهشلى والقعقاع بن معبد بن زرارة
التميمى فقد تنافرا إلى أكرم بن صيفى أيهما أكرم وجعل بينهما مائة من الابل
تكون على المفضل فطاب اليهما أكرم أن يرجعا عما جاءا اليه فأيا فكره أن
يحكم بينهما ولكنه حبس الابل وبعث بهما إلى ربيعة بن حذار الاسدى
ليقضى بينهما فلما قدما عليه وأخبراه بما جاءا من أجله قال هاتيا مكارمكما
فقال خالد أعطيت من سأل وأطعمت من أكل ونصبت قدورى حين وضعت
السمك ذيوها وطعنت يوم شوا حط فارسا فجالت فخذيه بفرسه فقال وما عندك
ياقعقاع فأخرج قوس حاجب بن زرارة وقال هذه قوس عمى حاجب رهنها
عن العرب ووفى بها وهاتان نعلا جدى زرارة قسم فيهما أربعين مرباعا وهذا
زريه لم ير ناره خائف الا أمن ولم يمك بطنب فسطاطه أسير الافك فنادى
ربيعة بن حذار إن السماحة واللهى والمرباع والشرف الاسبع للقعقاع ألا انى
نقرت من كان ابوه معبدا وعمه حاجبا وجده زرارة

هذا وكثير ما كان يعتمد الحكم الى الصالح بين المتنافرين تفاديا للشر وحسما
للخلاف فيقع كلامه فيهما من أروع الخطب في الدعوة الى السلام والاعتصام
بجبل المودة والوئام ومن ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف في خزاعة
وقريش حين نفرتا اليه فقد خطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة قال :-

أيها الناس نحن آل ابراهيم وذرية اسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو
قصي بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم . لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن
المجد ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته الا مادعا الى عقوق
عشيرة وقطع رحم

يابني قصي أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه والسيف
لا يصبان إلا بغمده ورامى العشيرة يصيبه سهمه ومن أمحكه اللجاج أخرجه
إلى البغى .

أيها الناس الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجود سؤدد والجهل
سفه والايام دول والدهر غير والمرء منسوب إلى فعله وماخوذ بعمله فاصطنعوا
المعروف تكسبوا الحمد ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء واكرموا المجلس يعمر
ناديكم وحابوا الخليط يرغب في جواركم وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم .
وعليكم بمكارم الاخلاق فانها رفعة واياكم والاخلاق الدنية فانها تضع الشرف
وتهدم المجد وإن نهمة الجاهل أهون من حزيرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها
ومقام الحليم عظة لمن انتفع به

فقالوا رضينا بك أبا نضلة وكانت كنيته وتصالحا

ومما يذكر عن هاشم بن عبد مناف في المنافرة أن أمية بن عبد شمس لما
حسده مكانته في قريش طلب منافرتة فكره ذلك ولا مكن قريشا . أكرهته
عليها فتنافرا إلى أحد كهان خزاعة على خمسين ناقة سوداء تنحر بمكة وعلى
الجللاء منها عشر سنين فلما نزلوا على الكاهن ابتدرهما بقوله . والقمر الباهر

والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بهلم مسافر
من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر فقال أمية من انتكاث الزمان
أن جعلناك حكما فقال له تنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة
وأحسن منك وسامة وأقل منك لامة وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا
ونقرها شما فأخذ هاشم الابل فنحرجها وأطعم وخرج أمية إلى الشام فقضى
بها الاجل المضروب. ويذكر المؤرخون أن هذه المنافرة كانت بمثابة التسجيل
لما كان من عداوة راسخة بين أمية وهاشم ورثها عنهما بعد الابناء والاحفاد

٣ - الخطب والوصايا

منشأ الخطابة . أغراضها . تأثيرها . منزلتها

تفرقت العرب في باديتها المترامية الاطراف الواسعة الاكتاف قبائل متشعبة
تتمسك كل منها بهصبيتها ونعرتها وتحرص على عزتها وكرامتها وتنقاد إلى
رئيس هو ملاك أمرها وقوام شأنها ترى فيه رمزا نفتها وعنوان مجدها وتختاره
من أكرم العناصر فيها وأقدرهم على التفاهم معها حتى يكون قلبها النابض ولسانها
الناطق يهيب بهم في كل حادث ويجمعهم لكل خطب فيكون له كلام ومنهم
استماع . ومن ثم كان من ألزم سمات الرئيس وأظهر الصفات فيه مقدرته على
القول وتما - كما زمام البيان فنشأت الخطابة سليقة في الرؤساء ونبغ فيهم من
مصاقع الخطباء الجم الغفير حتى كان لكل قبيلة خطيب

فالخطابة اذن وليدة حاجة العرب الطبيعية ونظام عيشهم الاجتماعى ولقد
رفع من شأنها فوق ذلك كثرة الدواعى اليها وانتشار الامية بينهم حتى كانت
وحدها مفزعهم واليها إذ لا كتابة مرجعهم

فبها كانوا يحرصون على القتال وشن الغارات والأخذ بالنار وبت الحمية
في النفوس وتحبيب الموت إلى الجبان في بيئة تتطلب منهم ذلك كل وقت وآن.
وبها كانوا يدعون إلى السلم كلما اكتوبروا بنار الحرب فلا يزال خطيبهم يفيض
في أضرار القتال ومنافع السلام حتى ينزع ما في صدورهم من غل ويستل ما
بنفوسهم من حقد فاذا هم قد أخلدوا إلى السكون وعادوا اخوانا وادعين ولو
إلى حين

وبها كانوا يتآمرون بالمعروف إذا نضب معينه ويتناهون عن المنكر إذا
زخر تياره فيحببون في الخير ويبغضون في الشر ويوصون باقتناء المحامد والتخلق
بالمكارم. وكثير من خطبائهم كان دأبه العظة والاعتبار وهم التذكير والالابة
ليخلص النفوس من أرجاسها ويطهر القلوب من أدرانها

وبها كان تفاخرهم بالاحساب والانساب وتكاثرهم بالاموال والأولاد
وتباهيهم بالمقدرة على الكلام لمجرد الكلام والدلالة على فوقهم في الفصاحة والبيان
في كثير من المجامع والاسواق

وبها كانوا يؤدون واجب السفارات بين بعضهم وبعض أو بينهم وبين
مجاورهم في الاشياء العامة من تأمين سبيل أو إجارة تجارة أو تهنة أو تعزية
فلا يزالون يختارون للسفارة أغنائهم بيانا وأوضحهم برهانا وأحضرهم بديهة
وأقواهم ارتجالا مسوقين في ذلك بحكم أميتهم وتعذر طرق الوصلة ببلادهم
مما لم يدع للكتابة مجالا عندهم

على أن من أغراض الخطابة فوق ما تقدم ما كان في الاملاك من خطب
تلقى لربط أواصر المصاهرة بين العشائر وتحبيب المخطوب اليهم في المخطوب لهم
بذكر فضائل الآخرين وأنهم للاولين أهل وأكفاء

ولما كانت أغراض الخطابة على ماسلف ذات اتصال وثيق بحياة العرب
وفي المكانة السامية من نفوسهم كان الخطباء يحفلون بخطبهم ويقبلون عليها من
كل نفوسهم فيتخيرون لها من المعاني أشرفها ومن الالفاظ أفصحها لتكون
أشد وقعا على النفوس وأبعد تأثيرا في القلوب وأيقظ للهمم وأحث على العمل
فان الاذن للكلام البليغ أصغى والطبع إلى المعنى الشريف أميل والكلام إذا
صب في قالب من البلاغة محكم الصوغ جذاب الشكل عظم اقبال السامعين على
ما يرغب فيه الخطيب ان كان يحب واشتد نفارهم عما يرغب عنه ان كان
يحذر ولو كانوا قبل استماعه على غير ما يريد وليس ذلك بالمبالغ فيه فان من
البيان لسحرا

ثم لم يفت الخطباء أن يتعودوا في خطبهم كل ما فيخمن من هذا التأثير ويزيد
في شدته كأن يقف الخطيب على شرف من الارض حسن الزى مخصوص
العمامة معتمدا على قوسه بيساره وفي يمينه عصاه وأن يكون جهير الصوت حسن
الايقاع صائب الاشارة تام الوقار إلى غير ذلك مما يباغ بالخطابة غايتها من
نفوس السامعين وبالقول نهايته في قلوب الشاهدين

وإذ كان للخطابة على حاجة العرب اليها وقصرها على السادة الأشراف
منهم تلك الأغراض في نبيلها وهذا التأثير في قوته فلا غرو أن كانت منزلتها
أشرف منزلة ومكانتها أسمى مكانة وأن كان الخطيب في كل قبيلة المرجع الذي
اليه يرجعون وعنه يصمدون لما أهدته به رياسته وهداه اليه بيانه وهل لذي
رياسة ما غنى عن قول ونزوع عن بيان فما بالناس إذا كان في بداوة ليس فيها ما قد
يغنى الحضري عن الكلام وفيها ما يدعو به إلى أن يقول ويطلق وهل لغير
ذلك كان الرسل عليهم السلام مقاول خطباء ولا مرما غير هذا قال جل شأنه
عن لسان موسى عليه السلام « وأخى هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي

ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون »

وكان الخطيب الوصايا إلا أن الخطيب أوسع دائرة وأبعد مدى فهى للمشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتنافر ومن الوفود فى كل مهم لدى الملوك والامراء والسادة والكبراء بيما الوصايا لاتعدو قوما مخصوصين فى أمر مخصوص كأن تصدر من سيد لعشيرته أو أب لبنينه أو امرأة لابنتها وأكثر ما تكون عند الاحساس بدنو أجل أو توقع فرقه. وهذى نماذج للنوعين فى كل ما ذكر من أغراض

فمن خطب التحريض على القتال والثبات فى الميدان خصبة هانىء بن قبيصة الشيباني فى قومه بكر يوم ذى قار وقد تقدمت فى الايام

ومن خطب الدعوة إلى الصلح والجنوح للسلم خطبة هاشم بن عبد مناف فى خزاعة وقريش حين تنافرتا إليه وقد تقدمت فى المنافرات وهى بعينها شاهد على خطب التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر

ومن خطب العظة والاعتبار خطبة المأمون الحارثى فى نادى قومه وهى كما رواها صاحب الامالى عن جماعة آخرهم أبو عبيدة قال :

قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم أكرطويلا ثم قال :

أرعونى أسماعكم وأصغوا إلى قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد طمح بالاهواء الاشر وران على القلوب الكدر وطخطنج الجهل النظر إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر . أرض موضوعة وسماء مرفوعة . وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتعزب . وقر تطلع والنجوم وتمحقه أدبار الشهور . وعاجز دثر وحول مكد وشاب مختضر ويفن قد غبره وراحلون لا يؤوبون وموقوفون

لا يفرطون . ومطر يرسل بقدر فيحيي البشر ويورق الشجر ويطلع الثمر وينبت
الزهر . وماء يتفجر من الصخر الأير فيصدع المدر عن أفنان الخضر فيحيي
الأنعام ويشبع السوام وينمي الأنعام . إن في ذلك لاوضح الدلائل على
المدير المقدر البارئ المصور . يأبها العقول النافرة والقلوب النائرة أني توفكون وعن
أى سبيل تعمهون وفي أى حيرة تهيمون وإلى أى غاية توفضون . لو كشفت
الاعطية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين وأفاق
من نشوة الجهالة من استوات عليه الضلالة

ومن خطب التماخر ما تقدم في المفاخرات لبيوتات العرب ومن طواها
خطبة النعمان بن المنذر عند كسرى وعنده وفود الأمم الأخرى وقد فضلهم
على العرب ومثلها خطب الوفد الذى بعث إليه عقب ذلك وكلها بالعقد الفريد
لابن عبدربه

ومن خطب السفارات خطبة عبد الملك بن هاشم في وفد قريش إلى سيف
ابن ذى يزن باليمن حين ظفر بالحبشة وأنت إليه وفود العرب لتهنئته ومدحه قال : —
ان الله أحلك أيها الملك محملا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا وأنتك منبتا
طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعته في أكرم موطن
وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى يخصب به وأنت
أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد وعمودها الذى عليه العماد ومعقلها الذى
تلجأ إليه العباد . سلفك خير ساف وأنت لنا منهم خير خالف فلان يخمل ذكر
من أنت سلفه ولن يهلك من أنت خلقه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة
بيته أشخصنا إليك الذى أبهجتنا لكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفدا لتهنئة
لا وفد المرزئة

٧ ومن خطب الاملاك خطبة أبي طالب بن عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في تزوجه خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها وهى من أقصد خطب الجاهلية قال : —

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكام على الناس . ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجداً ونبلا . وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعاريه مسترجعة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أحبيتم من الصداق فعلى

٨ ومن أوصايا السادة لعشائريهم وصاة اكثم بن صيفى التميمى لقومه قال : —

يا بنى تميم لا يفوتنكم وعظى ان فاتكم الدهر بنفسى . ان بين حيزومى وصدرى لكلاما لا أجد له مواقع إلا اسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته . الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول والنفس مهملة والروية مقيدة ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ولن يعدم المشاور مرشدا والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلزال ومن سمع سمع به ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ولواعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا مقائل الكرام وعلى الاعتبار طريق الرشاد ومن سلك الجدد أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤثر غيظه ولا تجاوز مضرته نفسه . يا بنى تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم وكلم اللسان أنكى من كالم السنان والكلمة مرهونة مالم تنجم من الفم فاذا نجمت فهى أسد محرب أو نار تلهب ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز . ونفاذ الرأي فى الحرب أجدى من الطعن والضرب

ومنها أيضا وصاة عامر بن الظرب العدواني الذي تقدمت الإشارة إليه مع أكنهم إذ قال له قومه وقد خشوا موته . إنك سيدنا وقاتلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفا وسيدا وقائلا فقال .

يا معشر عدوان كلفتموني بغيا ان كنتم شرفتموني فاني أريتكم ذلك من نفسي فاني اكنم مثلي . افهموا ما أقول اكنم .

إن من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق .

يامعشر عدوان — لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش الفقير مع الغني . ومن يثر يوما يثر به . وأعدوا لكل أمر جوابه . إن مع السفاهة الندامة والعقوبة نكال وفيها ذمامة . ولليد العليا العاقبة . والقود راحة لا عليك ولالك . وإذا شئت وجدت مثلك . إن عليك كما أن لك . وللكثر ذالر عيب وللصبر الغلبة . ومن طلب شيئا وجده وان لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه .

ومن وصايا الآباء للأبناء وصاة ذي الاصبع العدواني حين احتضر لابنه

أسيد قال :-

يا بني إن أباك قد فني وهو حي وعاشي حي سيم العيش واني موصيك بما إن حفظته بلغت في قودك ما بلغت فاحفظ عني . ألن جانبك لقودك محبوبك وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على هودتك صغارهم واسمح بمالك واحم حريمك وأعزز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة في الصريح فان لك أجلا لا يعدوك وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا فذلك يتم سؤدوك

ومن وصايا النساء لبناتهن ما ذكره الميداني عن المفضل الضبي في المثل

«ما وراءك يا عصام» ولن نروى منه إلا محل الاستشهاد قال :

لما أرادوا أن يحملوا ابنة عوف بن محلم الشيباني الى زوجها الحارث بن عمرو

ملك كندة قالت لها أمها توصيها : —

أى بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك والكنها

تذكرة للغافل ودعوة للغافل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها

وشدة حاجتهما اليها كنت أغني الناس عنه والكن النساء للرجال خلقن ولهن

خلق الرجال. أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلقت العش

الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فأصبح بما كده عليك رقيبا

ومليكا فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا . يا بنية احملى عنى عشر خصال

تكن لك ذخرا وذكرا الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة. والتعهد

لموقع عينه والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك الا

أطيب ريح والكن محل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود . والتعهد

لوقت طعامه والهدوء عنه عند منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم

مغضبة. والاحتفاظ ببيته وماله والارعاء على نفسه وحشمه وعياله فان الاحتفاظ

بالمال حسن التدبير والارعاء على الحشم والعيال جميل حسن التقدير. ولا تقشى

له سرا ولا تعصى له أمرا فانك ان أفشيت سره لم تأمنى غدره وان عصيت

أمره أو غرت صدره . ثم اتقى مع ذلك الفرح ان كان ترحا والا كمتاب عنده

ان كان فرحا فان الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير . وكوني

أشد ماتكونين له اعظاما يكن أشد ما يكون لك اكراما وأشد ماتكونين له

موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة . واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتحبين
حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله
مخير لك

هذا وكتب الادب، ملأى بأخبار الخطباء والحكماء والموصين وضاربى
الامثال وذوى الاسجاع من الكهنة والعرافين ولا محل هنا للمزيد عما سقناه
ففيه الغناء لما أردنا من نماذج على سبيل التمثيل لأنواع النثر وأقسامه فى آن.

الشعر الجاهلى

١ — أولية الشعر عامة ولدى العرب خاصة

ليس للشعر باعتباره تلك المعانى المؤثرة التى تتصل بالشعور وتعبر عن خليجات النفوس وتنساق لهوى الغرائز والميول أولية تعرف فانه بهذا المعنى يكاد يكون مخلوقا مع الانسان منذ أن هبط الى هذا الوجود مجموعة غرائز فطرية يخضع لها فى كل أعماله خضوعا لا يحد منه عقل ولا يقف فى سبيله فكر لان التعقل والتفكير لم يوجد إلا بعد حقب طال أمدها اكتسب الانسان خلالها من التجارب ما أوجد له عقلا بجوار الغريزة فصارت إرادته مرتكزة عليه بعد أن كانت مسخرة دون تفكير للغرائز الخافزة والميول الدافعة . ولكن ليس مما يسيغه عقل ولا تسمح به سنة أن تكون تلك المعانى قد ظهرت أول ما ظهرت فيما نسميه شعرا بالمعنى الاصطلاحي أى فى قوالب محدودة من الأوزان والقوافى فان هذه القوالب فى كل اللغات أثر من آثار حضارتها والحضارة لا يمكن أن تكون إلا بعد قرون طويلة تقطعها اللغة منذ نشأتها الى حيث تظهر بها أمثال هذه الآثار .

فالمعانى الشعرية وجدت حيث وجدت مطلقة الاسلوب من كل قيد وأخذت فى التدوج الى أن بلغت الغاية التى نرى من قيود ثم جهلت هذه الخطوات الاولى كما جهلت سائر أوائل الاشياء . على أن العقل يكاد يجزم فى لغتنا العربية أن أول خطوة خطاها شعرها كانت متمثلة فى الاسجاع وبعدها كان تساوى الفواصل فيها ثم خضوع هذا التساوى شيئا فشيئا لآقيسة التفاعيل وبذلك

تحقق الوزن في البيت الواحد مع اتحاد الحرف الاخير في الشطرين كما نراه في منظومات العلوم والفنون وهذا أهون أنواع الشعر . وتلا هذه الحالة التقيد بحرف القافية في الاعجاز مع التحلل منه في الصدور وفي خلال ذلك وعلى توالى القرون تنوعت الاوزان وطالت القوافي وبلغ الاقتدار على التقيد مداه حتى وصل الى الارجيز وهى أصعب أنواع الشعر . ومن هذا يفهم أن الشعر العربي لا بد له في معناه من التأثير المعتمد على الشعور وفي لفظه من التقيد بالوزن والقافية . واذا ما خلا من هذين معاً أو من أحدهما سمى نثراً فحسب أو نثراً شعرياً أو نظماً لا شعراً . فالشعر على اطلاقه هو ما عطينا وعلى هذا القصد ذكرنا ما ذكرنا آنفاً من أن النثر أسبق منه الى الوجود .

ولما كان المعنى الشعري فطرياً تهدي اليه الطبيعة البشرية إذ لا بد منه للانسان في التسرى عن نفسه وقت الشدة والتسلى به حين الوحدة ظهر الشعر على ألسنة الامم جمعاء ولم تختص به أمة دون أخرى ولكنها لم تكن فيه سواء فكانت أكثرهن فيه قولاً أصلاً لها بيئة وأوفقها له لغة . ومن ثم كانت العرب في جاهليتها من أقدر الشعوب عليه إن لم تكن أفدرها جميعاً فقد قالت رجالاً ونساء شبانا وشيباً سادة وسواداً ولم يعدم أقليمهم فيه شأن الأبيات يقدمها في حاجته أو يعبر بها عن معنى في نفسه وان لم يك من الملقين بالشعراء لأن طبيعة العيش البدوي تهدي الى الشعر وتدعو الى الغناء به .

فمن حياة بسيطة ساذجة لا شيء فيها يطغى على الفطرة أو يमित الوجدان بل كل ما فيها ينميها ويزيد من قوتها . فالسماء صافية الرقعة متألفة الكواكب والارض منبسطة الأديم لامعة الرمال متصلة بالعائش فيها تمام الاتصال متجلية له بكل ما عليها من حيوان ونبات . الى رحلة طويلة دائمة لا يفارق العربي فيها راحلته فلا يزال يسوقها وهى تقطع المفاوز والقفار بتلك الحركة

المرقصة كارجوحة الطفل لا تكاداليد تهزها حتى ينطلق اللسان فيغنيها . كذلك هو انطلق لسانه لراحلته فلم يزل يحدوها بألحان الشعر ويرفع من ورائها عقيرته بأهازيجه . ولقد قالوا إن أول ما نشأ من الاوزان الرجز وما الرجز إلا قياس رسمه في مخيلة العرب سير الابل في الصحراء ففاض الشعر على أسنتهم أول ما فاض بألفاظه و تفاعيل الرجز في الوقع سواء .

تهيات للعرب إذن منذ كانت العرب دواعى الشعر بما تهيا لهم من سلامة فطرة وملاءمة بيئة ثم كنف عيشهم ما كنفه من ضنك ومشقة وتفرد وعزلة فهرعوا اليه يتخذونه لدى الشدائد عوناً وفي الوحدة أنيساً حتى كان لحنهم وهجيراهم شأن ذوى الاعمال المتعبة والخلوة الموحشة لا غنى لهم عن الغناء به ولا محيص . ولقد ذل من مطاوعته لهم حتى صار ساسيلاً جارياً تلك اللغة الذلول ذات الغنى الكبير في مفرداتها ومرادفاتها والتصرف الاكبر في أساليبها وتراكيبها فنبغوا فيه نبوغاً عدد من أوزانه وأطال في قوافيه وجعله في هذين الامرين ذا منزلة لم يدانه فيها سواء ، وأنى لغيره تلك المدانة دون أن تهيا لغته في مفرداتها وأساليبها لما تهيات له لغة الضاد في التصرف البعيد البديع الذى مكى لذوى الصنعة اللفظية من الاتيان بأشياء لولاه كانت من المعجزات . وفي مقامات الحريرى من هذا الضرب فنون وألوان ، فمن مقامة تتضمن رسالة إحدى كلماتها معجمة والاخرى مهملة الى مقامة تتضمن أخرى كل كلمة فيها أحد حروفها معجم والاخر مهمل الى مقامة تتضمن رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه الى مقامة تتضمن عبارات تقرأ طرداً ورداً فلا يغيرها عكس حروفها الى غير هذا مما ليس له نظير ولا شبيه في أية لغة أخرى .

(وكما كانت العرب فى جاهليتها ذات قدرة على الشعر فائقة وشاملة معا)

كذلك كانت من أقدم الأمم المعروفة به . فأولية الشعر عندها تكاد ترجع الى

أوليتها وهى أمة قديمة العهد ذات صلة بفجر التاريخ . غير أن بدوانها وأميتها حالنا بينها وبين تدوينه بنقش على أثر أو كتب فى كتاب ، فلم يك لها حياله إلا تليقه بالحفظ والادكار فأخذ يطوى بطي الحقب ويذهب بذهاب الحفظة وهيئات للحفظ وحده أن يبقى معه مآثور على تلك القرون الطوال . لذلك كان الضياع حليف الشعر الجاهلى فلم يسلم لنا منه وراء قرنين قبل الهجرة شىء كما لم يسلم منه فى هذين القرنين بالنسبة لما ضاع إلا القليل .

وأول مآثور عرف كان فى قبائل ربيعة بنجد والعراق وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس ومن أقدم شعرائها ويقال إنه أول من قصد القصيد والصواب أول من عرف له القصيد الملهل وهو عدى بن ربيعة التغلبى أخو كليب الذى هاجت بمتمله بين القبيلتين السالفتين الحرب السابقة فكان لها فى إذكاء الشعر بربيعة الاثر الكبير . ثم تحول الى قيس عيلان وكانت شعوبها تملأ نجدا وأعالى الحجاز . ومن قبائلها عبس وذبيان وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء وتناولات معهما الكثير فكان لها من إذكاء الشعر فى قيس ما كان فى ربيعة لحرب البسوس . ومن قيس انتقل الى تميم وتميم مسعر الحروب فاستقر فيها وكانت أول نشوئها فى تهامة ثم نزلت الى شرقى نجد وبادية العراق . ولم يظهر فى مدركة إلا فى بطون سكنت البادية منها كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش وبهذا غلب الشعر على أكثر أهل البادية من مضر وربيعة كما غلب على من ساكنهم بها من نازحى قبائل اليمن القدماء كطيء وكندة وغيرهما مما تقدم بيانه فى القبائل والبطون ، أما الحواضر فكانت قليلة فى ذاتها وكذلك كانت قليلة الشعراء .

وإذا قلنا إن الشعر كان أقدم مما أثر منه بكثير فانا نستند فى قولنا هذا الى العقل والى المآثور ، فأما الى العقل فلا نه يأتى على الشعر الا بآء كله أن يظهر

طفرة بذلك المظهر الذى كان عليه أيام حرب البسوس ، وما قصائد مهمل في وصف تلك الحرب وفي رثاء كليب أخيه إلا نتيجة حقب طويلة درج فيها الشعر حتى تم صقاله وتعددت أوزانه واستطالت قوافيه ولا بد أن تكون تلك القصائد مسبوقة بأمثالها في العهد القريب وبشبهات لها في البعيد ، وهكذا القمقرى الى عهود سحيقة كان الشعر فيها في صور المقطعات الصغار . وأما الى المأثور فلا نرى في أقدم الشعراء المروى عنهم من يقول وهو امرؤ القيس

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

وابن حذام أقدم من امرى القيس ولم يصل إلينا من شعره شيء ولا بد أن يكون قد وقف على الاطلال وبكى الديار كما يريد أن يقف ويبكى امرؤ القيس ثم لا بد أن تكون له قصائد افتتحها بالوقوف والبكاء وصرف يقول فيها بعد الى غير ذلك من الاغراض بهذا كان يدين الشعراء كما مرى القيس للقدماء ألا ترى الى عنتره يفتتح معلقته فيقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرف الدار بعد توهم

فنحن اذا انحزنا في دراسة الشعر الجاهلى الى القرنين السابقين للاسلام فنعمل ذلك مضطرين لانقطاع الرواية الصحيحة عما قبل هذا التاريخ لان ماروى منه أقرب الى الوضع والاختلاق ، ومن العبث التعرض له بكلام فقد أفرط القصاصون في التوغل بالشعر الى القديم حتى أوصلوه الى العرب البائدة فذهبوا اليها منه الكثير فيما ذكروه عنها من أساطير ناسين أنهم رووه بلغة مضر قبيل الاسلام ومحال أن تتحد ولغة عاد ، على أن ذلك ليس بالغريب عليهم وقد نسبوا الشعر الى آدم وأولاده والى الجن والملائكة والشیاطين .

تلك نبعة الشعر عامة ولدى العرب خاصة وإنا لسائقو القول بعدها على الشعر الجاهلى من حيث طبيعته وفنونه ، تسجيله كثيرا من أحوال العرب ، تأثيره ومنزلة رجاله ، طبقات الشعراء ومنزلة اصحاب المعلقات فيهم مع السبب في تسميتها بهذا الاسم ثم منزلة المعلقات نفسها منه إن شاء الله .

٢ — طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه

رانا مضطرين قبل التكلم في طبيعة الشعر الجاهلي أن نسوق القول عاما في طبائع الشعر القديم كلمة حتى يمكن أن نرجع الشعر المذكور الى الطبيعة التي تلاءمه والتي اليها ينتمى

فان من الشعر ما هو قصصى ينصرف الى القصص فيذكر الحروب والابطال ولكنه لا يقتصر في ذكرها عليهما بل يمزج بهما مناداة الالهة واستيحاءها فهو شعر اجتماعي تفنى فيه شخصية الشاعر الى حيث لا يراها الانسان ثم هو في لفظه طويل بالغ في الطول تصل القصيدة الواحدة منه الى آلاف من الابيات دون أن تتقيد بلون واحد من الوزن والتقفية ، وكثيرا ما تعتمد في انشادها على الموسيقى / وهذا النوع من الشعر يلائم كل أمة في فطرتها الاولى اذا تضامت برابطة اجتماعية تصل بين أفرادها في الدفاع والاغارة وأخرى دينية توحد بينهم في العقيدة ولكنها تعدد من آلهتهم ومعبوداتهم كأمة اليونان في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

ومنه ما هو تمثيلي يعتمد على الحوار المصحوب بالحركة والعمل الصادر عن كثير من الاشخاص دون اشمال على أمثال سأل وأجاب أو قل وقلت فترى المتحاورين فيه يتحدثون وهم يغدون ويروحون يأتون من الاعمال ما يستلزمه هذا الحوار مهتمدين في أقوالهم على ما هنالك من غذاء وموسيقى ورقص وهو في موضوعه أوسع دائرة من القصصى لانه يتناول القصة وغيرها ثم القصة فيه غير قاصرة على الابطال والحروب ولا مقيدة باستيحاء الالهة وخطابها ولذلك لم يظهر في أمة قديمة إلا نتيجة لرقى عقلى كبير وحياة ديمقراطية صحيحة كأمة اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

ومنه ما هو غنائى يخرج عن الدائرة الاجتماعية للقصص والتمثيل الى شخصية الفرد أولا وقبل كل شيء فلا يزال يصور نفسية الشخص وما يتصل بها من وجدان وميل ولا يفتأ صاحبه يعنى نفسه بحبه وبغضه ولذته وألمه . وهو نتيجة لرقى الشخصية الفردية وتحررها من قيود الاجتماع المسيطرة من غير رأى ومن شوائب العقيدة المشتركة للآلهة فى كل عمل . ولذلك كان الرحلة الوسطى لاختويه فى الامم التى وجدت بها المراحل الثلاث كأمة اليونان أيضا فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

فطبائع الشعر ثلاثة ونحن اذا عرضنا لاسبابها ومميزاتها نطبقها على العرب فى جاهليتها لا نجد لها تهيأت إلا للشعر الغنائى فحسب . نعم كان لها ذكر قوى لا بطلها ووصف معروف بحروبها ولكنه لم ينهض أن يسمى شعرا قصصيا لأنها قالته غير مطيلة فيه دون أن تنسى شخصيتها أو تستوحى آلهتها . كما كان لها حوار يظهر فى القصيدة بين عاشقين أو متخاصمين ولكنه لم ينهض كذلك أن يسمى تمثيليا ، لان الحوار فيه على ضيق دائرته وقلته لم يتجرد من أمثال قلت وقال ولم يصحب من المتحاورين بالحركة والعمل كما لم يعتمد على ما اعتمد عليه التمثيل من رقص وموسيقى وغناء .

واذن الشعر العربى غناء كله ولكنه فى جاهليته عن طبيعة وبيئة وفى إسلامه عن محادة وتقليد وليس يضير العرب من ذلك ضير لان شاعرية الامة لا تقاس بأنواع الشعر بل بالدرجة التى بلغت إنتاجا وقدرة فى النوع الذى تهيأت له والامة العربية قد بلغت من الشعر الغنائى مبلغا لم تشاركها فيه أمة أخرى فقد قالته فى كل عصورها فجاء فى عموميه معبرا عن الجمال الفنى المطلق الذى تنشده الانسانية جميعا ليكون صلة بين شعوبها وأجناسها على اختلاف بيئها وعصورها كما جاء فى خصوصه مرعاة تمثل أصدق تمثيل لشخصية الشعراء

وحالة البيئات و حياة الافراد والجماعات حتى انه ليعد من أصدق مصادر التاريخ على اختلاف الامكنة والعصور وحسبه أن أدى رسالة بقوة في هاتين الناحيتين وليس بعد ذلك منال .

هذه طبيعة الشعر الجاهلي فاذا قلنا طبيعته وفنونه فانما نقصد الى الفنون الداخلة في هذه الطبيعة الغنائية من نسيب وفخر ورثاء ومدح وهجاء ووصف لا الى أى نوع من النوعين الآخرين وهما القصصى والتمثلى على أن له أبوابا أخرى ولكن هذه الابواب الستة أهم فنونه إذ هى الاصلية فيه واليها يكاد يرجع غيرها من وعيد وانداز، استعطاف واعتذار، اقتضاء واستنجاز، ملامة وعتاب الى غير هذه مما يعده الادباء . أما الحكم والامثال فلم تك بالـكثيرة فى الشعر الجاهلى كما لم تك تأتي وحدها قصدا بل عفوا وفى ثنايا غيرها . وهذه كلمة عن كل فن من الفنون الستة متبوعة بنماذج له .

١ - النسيب

ويرادفه التشبيب والتغزل وكلها راجعة الى المرأة فى وصفها حساً ومعنى واظهار الميل اليها والكف بحبها مع ما يتبع هذا من التألم لفراقها والتشوق الى اللقاءها الى غير ذلك مما يدل على شدة الصباية وفرط الوجد وتصورها فى كل ذي صلة بها أو مشابهة لها من الديار والآثار والنبات والحيوان والرياح والبرق . وقد شغل النسيب فى الجاهلية مكانا عظيماً من الشعر ولا يبعد أن يكون أقدم فنونه لقدم علاقة الرجل بالمرأة ولان حياة البداوة تجعل مشاركتها له مجسمة بارزة ، هذا الى ما للحل والارتحال الدائبين بتقلب الفصول والايام من خلق أسباب الهوى والهيام لما فيهما من قرب وفراق وتواصل وبعاد . ولذا كثر فى العرب العشاق المتيمون أمثال المرقش الاكبر من بكر وائل

واسمه عوف بن سعد وعبد الله بن العجلان من نهد من قضاة ومالك بن الصمصامة من بنى جعدة ومسافر بن أبي عمرو من قريش ثم عروة بن حزام العذري وقد أدرك الاسلام فهؤلاء ولهم أمثال وأشباه عاشوا للمرأة وفي المرأة ماتوا وخلص لها شعرهم كما خالص لها حبيم ثم لم تعد من غيرهم الا كثير من الاشعار ان لم يكن قصدا وبالذات ففي مطالع القهائد وكثيرا ما كانت تراجع الغرض منها أو تزيد ويحسن أن نختص تلك المطالع باسم التشبيب وهذا فرق ما بينه وبين التغزل والنسب أما الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال إن التغزل ما عمد فيه الشاعر الى وصف المرأة مدفوعا الى ذلك بعقيدة أو مسوقا فيه بصناعة والنسب ما توجه فيه الى ذكر الصباقة والوجد وألم الهوى والفراق صادرا في ذلك عن وجدان وشعور لا يكونان الا في المحبين المغرمين ومن هنا كانت كلمة النسب أنسب الكلمات الثلاث لاطلاقها على هذا الفن من الشعر كما اخترناه .

نماذجه

قال المرفش الأكبر وهو من الشعراء المتيمين

سرى ليلا خيال من سليمى فأرقنى وأصحابي هجود
فبت أدير أمرى كل حال واذكر أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفي لنار يشب لها بذى الارطى وقود^(١)
حواليها مهأً بيض التراقي وآرام وغـزلان رقة ود
نواعم لا تعالج بؤس عيش أو انس لا تروح ولا ترود

(١) ذو الارطى مكان والارطى شجر

يرحن معا بطاء المشى بدءا عليهن المجاسد والبرود (١)
سكن ببلدة وسكنت أخرى وقطعت الموائق والعهود
فما بالى أفى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد

وقال فى ابنة عمه أسماء وهى التى مات بحبها

أغالبك القلب اللجوج صباة وشوقا إلى أسماء أم إانت غالبه
يهم ولا يعيا بأسماء قلبه كذلك الهوى أمراره وعواقبه (٢)
أيلحى امرؤ فى حب أسماء قد نأى بغم من الواشين وازور جانبه
وأسماء هم النفس إن كنت عالما وبأدى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس ظلت كاء ننى يززعنى قفقاف ورد وصالبه (٣)

وقال عروة بن حزام العذرى وهو من المخضرمين من قصيدة طويلة فى ابنة
عمه عفراء

على كبدى من حب عفراء قرحة وعيناي من وجد بها تكفان
فعفراء أرجى الناس عندى مودة وعفراء عنى المعرض المتواني
فيأليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والانعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لبانة ويرعاها ربي فلا يريان
هوى ناقتى خلفى وقدامى الهوى واني واياها لمختلفان
يقول لى الاصحاب إذ يعدلوننى أشوق عراقى وأنت يمانى
تحملت من عفراء ما ليس لى به ولا للجبال الراسيات يدان

(١) جمع مجسد كمبرد الثوب إلى الجسد وجمع برد كقفل كساء مخطط أو

كسمة يلتحف بها واحدتها بهاء (٢) جمع مرصد الحلو (٣) الورد بكسر الواو والحمى

أوقفقافها ذو الرعدة منها يذهب ويجىء فاذا استمر فهو الصالب

كان قطاة علقت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان
 جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إنهما شفياني (١)
 فقالا نعم نشفى من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران
 فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة الا وقد سقياني
 وما شفيا الداء الذى بي كله ولا ذخرا نصحا ولا ألوانى (٢)
 فقالا شفاك الله والله مالنا بما ضمننت منك الضلوع يدان

٢ — الفخر

هو تمدح الشاعر بنفسه وقومه وذكر ما أثرهم ونفاخرهم وأكثر ما تناول
 الفخر تناول الشجاعة والنجدة والبأس والقوة وإجارة الجار ومنع الحریم واکرام
 الضيف وإيواء الطارقين وهى خير ما كانت تقدس العرب من صفات وأكثر
 ما كان يظهر فى حياتهم ويتطلبه عيشهم. وأنسب ما كان يقع الفخر كان يقع من
 السادة الاشراف والابطال الفرسان ومن جرى مجراهم من الصعاليك المغيرين
 فمن السادة زهير بن جناب الكلبى من قضاة والحسين بن الحمام من قيس والمهمل
 ابن ربيعة وعمر بن كلثوم من تغلب والافوه الاودى من مذحج وعبد يغوث
 من كهلان وعامر بن الطفيل من قيس وأبو قيس بن الاءسلت من الاءوس
 وقيس بن عاصم من تميم وقد أدرك الاسلام ومن الفرسان علقمة الفحل من
 تميم وعنزة العبسى وحاتم الطائى وسلامة بن جندل التميمى وقيس بن الخطيم
 الاوسى والاعلب العجلى وعمر بن معد يكرب الزبيدى ثم أبو محجن الثقفى
 وزيد الخيل الطائى وقد أدرك الاسلام ومن الصعاليك المغاوير عروة بن الورد
 العبسى وتأبط شرا القيسى والسليك بن السلكة التميمى

(١) الاول رباح بن عجلة والثانى الابلق السعدى (٢) ألى قصر من باب نصر

نماذجه

قال عمرو بن الاطنابة أحد بني الخزرج يفتخر بقومه وهو ممن ملك

الحجاز في الجاهلية (١)

اني من القوم الذين اذا انتدوا بدعوا بحق الله ثم النائل (٢)
المانعين من الخنا جاراتهم والحاشرين على طعام النازل (٣)
والخالطين فقيرهم بغنيهم والبالذين عطاءهم للسائل
والضاربين الكباش يرق بيضه ضرب المهجيج عن حياض الابل (٤)
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم إن المنية من وراء الوائل (٥)
والقائلين فلا يعاب كلامهم يوم المقامة بالقضاء الفاصل
خزر عيونهم إلى أعدائهم يمشون مشى الاءسد تحت الوابل
ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل (٦)
وقال حصين بن الحمام المرى في الصبر

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه وأن كان يوم ذا كواكب مظلماً
صبرنا وكان الصبر منا سجية بأسيا فنا يقطعن كفا ومعضماً
نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلماً
ولما رأيت الود ليس بنافعي عمدت إلى الامر الذي كان أحزماً
فلست بمبتاع الحياة بذلة ولا مراق من خشية الموت سلماً

وقال حاتم الطائي في الكرم وما اتصف به من مكارم الاخلاق

فاني لا آلو بمالي صنيعه فأوله زاد وآخره ذخـر

(١) الاطنابة المظلة وهي أمه (٢) انتدوا اجتمعوا (٣) الخنا الفحش

(٤) الزاجر الابل بقول هيج هيج (٥) الوائل طالب النجاة (٦) جمع نكس كقررد الضعيف ، جمع أميل الاعزل

يفك به العاني ويؤكل طيبا وما إن تعريه القداح ولا الخمر (١)
ولا أظلم ابن العم ان كان اخوتي شهودا وقد أودى باخوته الدهر
غنيئا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقانا به كأسيهما العصر (٢)
فما زادنا بأوا على ذى قرابة غنا ولا أزرى بأحسابنا الفقر (٣)
وما ضر جارا يا ابنة العم فاعلمى يجاورني ألا يكون له ستر
بعمى عن جارات قومي غفلة وفي السمع منى عن حد يشهم وقر

وقال عتيبة بن بجير المازني من بنى الحارث بن كعب في ايواء الطارق

ومستنبح بات الصدى يستتيهه إلى كل صوت فهو في الرحل جانح (٤)
فقلت لاهلى ما بغام مطية وسار أضافته الكلاب النوايح (٥)
فقالوا غريب طارق طوحت به متون الفيافي والخطوب الطوارح
فقلت ولم أجم مكانى ولم تقم مع النفس علت البخيل الفواض
وناديت شبلا فاستجاب وربما ضمنا قري عشر لمن لانصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد هم كئنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحاح
جعلناه دون الذم حتى كأنه اذا عد مال المكثرين المنائح (٦)
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى الى بيتنا مال مع الليل رائح
ومن أحسن ما قيل في الصعلكة قول عروة بن الورد العبسى المعروف بعروة الصعاليك
لما الله صعلوكا اذا جن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجزر (٧)

(١) العاني الاسير (٢) غنيئا أقمنا (٣) البأو التكبر (٤) الجانح المائل

(٥) البغام صوت فى حنين (٦) المنايح جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع

إلى الجار ينتفع بلبنها مادام بها لبن (٧) المشاش بضم الميم رأس العظم ومصافيه

آخذه كله

يعد الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينبـام ثقيلًا ثم يصبح قاعداً يحث الحصى عن جنبه المتعقر (١)
يعين نساء الحى ما يستعنه فيضحى طليحاً كالبعير المحسر (٢)
ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه كضوء سراج القابس المتنور
مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زحر المنيح المشهر (٣)
وان بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر
فذلك إن يلقى المنية يلقهـا حميدا وإن يستغن يوما فأجدر
يريح على الليل أضـهـ ياف ماجد كريم ومـالى سارحا مال مقتر

٣ — الرثاء

هو بكاء الميت وتعدد محاسنه وصفاته في ثوب من التمتع والحسرة والتلهف
والاسى مع استعظام المصيبة واستشعار الجزع إن كان الميت من ذوى الرياسة
والاقدار وقد كان من عادة القدماء فيه أن يضر بوا الامثال بمن سلف من الانبياء
والملوك والامراء والعظماء وبما هلك من الوعول المعتصمة بقنن الجبال والاسود
الخادرة فى ثنايا الغياض وحر الوحش الضاربة فى مجاهل القفار ثم بالنسور
والحيات ذات البأس القوى والعمر المديد وأن يخلوه من التشبيب الذى اعتادوا
أن يفتتحوا به القصيد فى سائر الفنون ماعداه وهو فى الجاهلية ذو شأن كبير
لما كان بها من حروب ذات بال لانفتأ تغتال الشجعان وتلتهم الابطال وقد
شاركت النساء فيه الرجال أكثر مما شاركنهم فى سائر الانواع لانهن أشجى
قلوبا وأشد جزعا لما ركب فى طباعهن من رقة العاطفة وضعف الاحتمال ولعل
أول من أكثر فيه وأطال المهمل فى رثائه لكليب أخيه ومن مشهورات المراتى

(١) يحث يفرك (٢) الطليح المعى والمحسر سافط الوبر من الاعياء

(٣) المنيح القدح لا نصيب له

من النساء قصائد الخمساء في أخويها معاوية وصخر ولا سيما الاخير على أن هذا الباب قد عم وفاض حتى لم يختص به شعراء كما هي الحال في غيره من الابواب لان الموت شامل والمصيبة على تحريك النفوس بالبكاء ذات قوة واقتدار .

نماذجه

من أقدم المراثي وأجودها ما كان من مهلهل في أخيه كليب ومن أدها على استفظاع المصيبة قوله

كليب لاخير في الدنيا ومن فيها اذ أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أى فتي عز ومكرمة تحت السفاسف إذ يعلوك سافيه^(١)
نعى النعاة كليباً لى فقلت لهم مالت بنا الارض أوزالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته ما كل آلائه يا قوم أحصيه^(٢)
القائد الخيل تردى في أعتتها زهو إذا الخيل لجت في تاديه^(٣)
من خيل تغلب ما تلتقى أسنتها الا وقد عضبوها من أعاديها
يهزهزون من الخطى مدحجة كتما أنا بيهي زرقا خواليها
تروى الرماح بأيدينا فتوردها بيضا ونصدرها حمرا اعاليها
ليت السماء على من تحتها وقعت وانشقت الارض فانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصالحكم ما لاحت الشمس في اعلى مجاريها

ومن جيد الرثاء مرثي الخمساء بنت عمرو بن الشريد السلمي في أخويها معاوية وصخر فمن مرثيها في معاوية قولها

(١) السفاسف جمع سفسف وهو التراب تسفيه الرياح (٢) جمع ألو كدلو العطيه
(٣) تردى كترعى ترجم الارض بحوافرها

أريق من دموعك واستفيقي وصبرا ان أطقت وان تطيقي
وقولي إن خير بني سليم وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل ترجعن لنا الليالي وأيام لنا بلوي الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم إذا حضروا وفتيان الحقوق
وإذ فينا معاوية بن عمرو على أدماء كالجلج الفنيق (٢)
فبكىه قـد أودى حميدا أمين الرأي محمود الصديق
فلا والله لا تسلاك نفسى لفاحشة أنبت ولا عقوق
والكنى رأيت الصبر خيرا من النعلين والرأس الخليق (٢)
منها في صخر قولها

أعني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندي
ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفقى السيدا
طويل النجاد رفيع العا دسـاد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ماعا لهم وان كان أصغرهم مولدا
ترى الحمد يهوى إلى بيته يري أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألقيته تآزر بالمجد ثم ارتدى
وقال أبو ذؤيب الهذلى وتتابع له بنون قيل ثمانية وقيل عشرة وقيل
هلكوا بالطاعون والصواب التتابع

() كمت حمر فى قنوء (٢) الفنيق الضيخم (٣) كان من عادة النساء

حلق الرأس وتعليق النعلين حزنا .

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمتعب من يجزع
 قالت أميمه ما لجسمك شاحبا منذ ابتذات ومثل مالك ينفع (١)
 أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذلك المضجع
 فأجبتها أما لجسمي أنه اودى بنى من البلاد فودعوا
 اودى بنى فأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تطلع
 سبقوا هوى واعتقوا لهواهم فتخرموا واككل جنب مصرع
 فغبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أنى لا حق مستتبع (٢)
 ولقد صرحت بأن ادافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع
 وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تيممة لا تنفع
 فالعين بعدهم كان جفونها سملت بشوك فهي عور تدمع
 وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع
 حتى كأنى للحوادث مروة بصفا المشقر كل يوم تقرع (٤)
 لا بد من تلف مقيم فانتظر أبارض قومك أم بأخرى المضجع
 ولقد أرى أن البكاء سفاهة واسوف يولع بالبكاء من يفجع
 وليأتيك عليك يوم مرة يبكى عليك مقنعا لا تسمع
 والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع
 كم من جميعى الشمل ملتئمى الهوى كانوا يعيش ناعم فتصدعوا

(١) أهملت نفسك ولبست المبتذل من الثياب (٢) غبرت بقيت ومضيت
 فهو من الاضداد (٣) سملت فقئت (٤) المروة حجر أبيض براق والصفاء
 واحده صفاء وهى الحجر الصلد الضخم والمشقر الجبل تضرب حجاراته إلى
 الشقرة .

فلئن بهم فجمع الزمان وريبه إني بأهل مودتي لمفجع
وهى طويلة وليكنه بعد هذا أخذ يضرب الامثال بما لم يتركه الموت من
أنواع الوحوش ذات القوة والاعتصام

٤ - المدح

وطريقة التنويه بفضائل الممدوح والتعريف بصفاته اشادة بذكره ورفع
إشأنه سيان في ذلك وصفه على سبيل العموم والاجمال بأمهات الفضائل
كالشجاعة والعفة والعدل والعقل أو تخصيصه على سبيل التفصيل بما هو أشبه
وله أميز كالأقدام والرأى في القائد والكرم والمساواة في السيد إلى غير ذلك من
الصفات النفسية اللائقة التي ليس للمادح أن يتجاوزها إلى غيرها من الجسمية
كالجمال أو العرضية كالغنى والمعها وقاصدا . على هذا كان مدح العرب في
جاهليتهم ثم إن ماركب في نفوسهم من عزة وإنفة وآباء وكرامة جعلهم يضيقون
دائرة المدح فلم يتعدوا فيه لذاتهم وذوى الرئاسة من عشائريهم غير أن السؤال
بالمدائح وطلب الاستجداد بالشعر لم يلبث أن ظهر فيهم آخر عهدهم فكان
منهم من تكسب بمدحه في ترفع كزهير أو تنزل كالأعشى أو بين كالأنافة
ولكن قلة هؤلاء ولو أنهم شهبوا وبعد وصيتهم لم تخرج بالمدح في جملته عما رسمنا

نماذجه

قال المسبب بن علس وهو من معاصري طرفة يمدح مالك بن سلمة الخير القشيري

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ولذى الرقبة مالك فضل

كفاه مخلقة ومتلقة وعطاؤه متخرق جزل (١)

يهب الجياد كأنها عسب جرد أطار نسيها البقل (٢)

(١) متخرق نافذ وجزل عظيم (٢) جمع عسيب الجريدة لا خوص فيها

ونسيل الخيل شعرها والبقل يطيرد من الشبع به

والضامرات كأنها بقر تقرود كادك بينها الرمل (١)
والدرهم كالعبدان آزرها وسط الاشام مكم جعل (٢)
وإذا الشمال حذب قلائضها رتكافليس لما لك مسئل (٣)
للضيف والجار الغريب ولا طفل التريك كأنه رأل (٤)
ولقد تناواني بنائله فأصابني من ماله سجل (٥)
متبعج التيار ذو حذب مغرورب تياره يعلو (٦)
فلاشكرن فضول نعمته حتى أموت وفضله فضل

ولزهير في هرم بن سنان المروى وبهته مدائح سارت بها الامثال ومن ذلك قوله
إذا السنة الحمراء بالناس أجهفت ونال كرام المال في الجحرة الاكل (٧)
رأيت ذوى الحاجات عند بيوتهم قطينا لهم حتى إذا نبت البقل (٨)
هنالك إن يستبخلوا للمال يخبلوا وإن يسألوا يعطوا وإن يبسروا يغلو (٩)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألفت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام فيهم قائم قال قاعد رشدت فلا غرم عليك ولا خذل
على مكثريهم حق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل

(١) تقرود تتبع والد كادك المرتفعات جمع دكدك (٢) النخل الصغير واحده
أشاة والمكم ذو الاكمام والجعل الكثير (٣) الرتك نقارب الخطا (٤) الرأل
ولد النعام والتريك المتروك (٥) السجل الدلو العظيمة (٦) متبعج التيار منفرجة
والحذب الارتفاع ومغرورب متماد لا ينقطع سيله (٧) الجحرة كنبقة السنة
الشديدة المجدة (٨) جمع قاطن المقيم (٩) إن يستقرضوه بقرضوه ، ان يبسروا
يلعبوا الميسر

فما كان من خير أتوه قائما توارثه آباء آبائهم قبل
 وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا في منابتها النخل (١)
 وقال الاعشى يمدح الاسود بن المنذر أخا النعمان من قصيدة طويلة
 والخطاب للناقاة

لا تشكى الى وانتجى الاسود أهل الندى وأهل الفعالي
 فرع نبع يهتز في غضن المحج د غزير الندى شديد المحال (٢)
 عنده البر والتقى وأسا الصد ع وحلى للمعضلات الثقال
 وصلاة الارحام قد علم النا س وفك الاسرى من الاغلال
 وهوان النفس الكريمة للذك ر إذا ما التقت صدور العوالي
 أريحي صلت يظل له القو م ركودا قيه امهم لهم لال
 ان يعاقب يكن غراما وان يع ط جزىلا فاته لا يبالى
 ومن مدائح النابغة للنعمان وفيها اعتذار واستعطاف

أتاني أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى اهتم منها وأنصب
 فبت كان العائدات فرشن لى هراسا به على فراشى ويقشب (٣)
 حلفت فلم أترك لنفسك ربية وليس وراء الله للمرء مذهب
 اثن كنت قد باغت عني وشاية لمبلغك الواشى أغش وأكذب
 واكننى كنت امرأ الى جانب من الارض فيه مستردا ومذهب
 ملوك واخوان إذا ما أتيهم أحكم فى أموالهم وأقرب
 كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
 فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

(١) الخطى شجر الرماح ووشيجه (٢) الغضن الثنى (٣) الهراس
 الشوك ويقشب يخلط

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
فانك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب
واست بمسابق أخا لا ناله على شعث أي الرجال المهذب
فان أك مظلوما فبعد ظلمته وان تك ذا عتي فمثلك يعتب

٥ — الهجاء

ويكون على عكس المديح بتجريد المهجو من الفضائل والصفات المرغوبة
كما يكون بوصمه بالذائل الشائنة والوصاف المنفرة وأشد ما وقع بالموازنة
والتفضيل . ولم يتجاوز هجاء الجاهليين القبائل إلى الأفراد ولا العف من القول
إلى الافذاع إلا حيث صار الشعر آلة للتكسب عند بعض الشعراء وأصبح من
الحتم عليهم أن يهجوا ليخيفوا أو ينتقموا وأن يخرجوا في هجوهم من القبائل
إلى الاشخاص متهمين بأقوالهم سجاج العفة والاعتدال ولعل أول من عرف
بذلك الاعشى ثم جاء بعده الخطيئة من الخضر من فأفرط وزاد حتى انه لم يهف
على هجو نفسه بما لا يرضى أن يهجو به انسان وكذلك فعل مع أمه وأبيه
غير أن ذلك لم يدنس العصر الجاهلي كله لقصره كما تقدم على آحاد

نماذجه

قال بشر بن أبي خازم الاسدي يهجو أوس بن حارثة لام الطائي
ألا أبلغ بني لام رسولا فبئس محل راحة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب (١)
وما أوس ولو سودتموه بمخشي العرام ولا أريب (٢)
أتوعدني بقومك يا بن سعدى وذلك من ملومات الخطوب

(١) الرشاء حبل الذنوب وهي الدلو (٢) العرام كغرام الحدة والشدة

والكثرة

- وحولى من بنى أسد عديد مبن بين شبان وشيب (١)
 هم ضربوا قوانس خيل حجر بجنب الرده فى يوم عصيب (٢)
 وهم تركوا عتية فى مكر بطعنة لا ألف ولا هيوب (٣)
 وهم تركوا غداة بنى نيمر شريحا بين ضبعان وذيب (٤)
 وهم وردوا الجفار على تمم بكل سميدع بطل نجيب (٥)
 وأفلت حاجب تحت العوالى على مثل المواعة الطلوب (٦)
 وحى بن كلاب قد شجرنا بأرماع كاشطان القلب (٧)
 اذا ما شمرت حرب سمونا سمو البزل فى العطن الرحيب (٨)

وعلى هذا العز الوطيد لبنى أسد يقول عبيد بن الأبرص الاسدى
 لامرئ القيس بعد قتل قومه لاييه يهجوهم فى شعر بالغ من الاستخفاف به
 وتهديده

يا ذا المخوفنا بقة لاييه اذلالا وحيننا
 أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبا ومينا
 لوما على حجر بن أمم قطام تبكى لا علينا
 إنا إذا عض الثقاف فبرأس صعدتنا لوينا (٩)

- (١) المبنى المقيم (٢) القوانس أعالى الرؤوس وحجر والد امرئ القيس
 (٣) عتية بن الحارث طعنه ذؤاب الاسدى والالف البطيء والهيوب الرعديد
 (٤) شريح يظهر أنه من سادات نيمر (٥) الجفار ما التميم (٦) حاجب بن زرار
 والمواعة العقاب والطلوب الشديدة الطلب للصيد (٧) شجرنا دفعنا وفرقنا
 والقلب البشر والاشطان حبالها واحدا شطن (٨) جمع ازل وهو من بلغ التاسعة
 من الابل (٩) الثقاف خشبة تقوم بها الرماح والصعدة الفتاة

نحمى حقيقةنا وبه ض القوم يسقط بين بينا
 هلا سألت جموع ك ندة إذ توالو أين أيننا
 أيام نضرب هامهم يوار حتى انحنينا
 وجموع غسان الملو لك أتيتهم وقد انطوينا (١)
 لحقا أياطلهن قد ملجن أسفارا وأينا (٢)
 ولقد صقلن هوازنا بنو أهل حتى ارتوينا (٣)
 نعليهم تحت الضبا ب المشرفي إذا اعترينا
 نحن الالى فجمع جموعك ثم وجههم الينا
 وأعلم بأن جياتنا آلين لا يقضين ديننا
 ولقد أحننا ما حميت ولا مبيع لما حمينا
 هذا ولو قدرت على يك رماح قومي ما انتهينا
 حتى تنوشك نوسة عاداتهم إذا انتوينا

وقال الخطيئة وهو من المخضرمين يهجو بني بهدلة ورئيسهم الزبرقان بن بدر
 ويمدح بني عمهم آل شماس وسيدهم بغيص بن عامر على سبيل المناظرة وهو من
 أوجع الهجاء وبخاصة بين الاقربين وكان نزيبلا عند الاولين فأهملوا أمره
 وتحول إلى هؤلاء فبالغو في اكرامه قال :

ألا أبلغ بني عوف بن كعب فهل حى على خلق سواء
 عطاردها وبهدلة بن عوف فهل يشفى صدوركم الشفاء
 ألم أك نائيا فدعوتوني فجاء بي المواعد والدعاء
 ألم أك جاركم فتركتهموني الكبي في دياركم عواء

(١) الضميران للخيال، (٢) الاياطل الخواصر (٣) الصلق الضرب

وَأَنْتِ الْعِشَاءُ إِلَى سَهِيلٍ أَوْ الشَّعْرَى فَظَالُ بَنِي الْإِنَاءِ (١)
 أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ
 وَلَمَّا أَنْ | تَيْتَكُمْ أَيْتُمْ وَشَرُّ مُوَاطِنِ الْحَسْبِ الْإِبَاءُ
 وَلَمَّا أَنْ أْتَيْتَهُمْ حَبُونِي وَفِيكُمْ كَانَ لَوْ شَتَّمْتُ حَبَاءُ
 وَلَمَّا أَنْ مَدَحْتُ الْقَوْمَ قَلَمْتُ هِجَوْتُ وَهَلْ يَحِلُّ لِي الْهَجَاءُ
 فَلَمْ أَشْتُمْ لَكُمْ حَسْبًا وَلَكِنْ حَدَوْتُ بِحَيْثُ يَسْتَمَعُ الْخَدَاءُ
 فَلَا وَأَيُّكَ مَا ظَلَمْتُ قَرِيعَ بَأْنٍ يَبْنُو الْفَكَارِمَ حَيْثُ شَاءُوا
 وَلَا وَأَيُّكَ مَا ظَلَمْتُ قَرِيعَ وَلَا عَنَفُوا بِذَلِكَ وَلَا أَسَاءُوا
 فَابْقُوا إِلَّا أَبَالِكُمْ عَلَيْهِمْ فَإِنْ مَلَامَةُ الْمَوْلَى شَقَاءُ
 وَإِنْ أَبَاهُمْ الْإِدْنَى أَبُوكُمْ وَإِنْ صَدُورَهُمْ مِنْكُمْ بَرَاءُ

٦ - الوصف

معناه الكشف والظهار وأبلغه ما قلب السمع بصرا والشعرا لا أقله راجع
 إليه فهو باب في عمومته واسع النطاق ولكنه قصر في عرف الأدباء على غير ما
 اندرج من أوصاف تحت غيره من أبواب وقد طرقة العرب قديما في كل ما
 شملته باديتهم وتناولته حاجاتهم من أرض وسماء واحداث جو والوان نبات
 وحيوان يدب على الارض وطير يصعد في الهواء ولكنهم تفاضلوا فيه كما
 تفاضل الناس في سائر الاشياء فمنهم من أجاد في كثير من الاوصاف وان غلبت
 عليه الاجادة في بعضها كأمريء القيس ومنهم من قصرت إجادته على وصف
 شيء دون غيره كابن داود الايادي وطفيل العنوي والنابعة الجعدي في نعت
 الخيل وكطرفة بن العبد وأوس بن حجر في نعت الابل وان كان أكثر العرب

يجيد وصفها وكالشماح في وصف الحجر الوحشية والقسى وكالاعشى في وصف
الحجر وهكذا ومن ثم عرف فريق من الشعراء باسم الشعراء الوصافين كمؤلاء .
نماذج - هـ

قال النمر بن تولب يصف أبدال الشيب

لعمري لقد أنكرت نفسي ورأيتني مع الشيب أبدالى التى أتبدل (١)
فضول أراها فى أديمى بعد ما يكون كفاف اللحم أو هو أفضل (٢)
كأن محطاً فى يدي حارثة صناع علت منى به الجلد من عل (٣)
وقولى إذا ما غاب يوماً بهيرهم يلاقونه حتى يؤب المنخل (٤)
وأضحى ولم يذهب بهيرى غربة وأشوى الذى أشوى ولا أتحمل (٥)
وظلعتى ولم أكسر وأن ظميتنى تلف بنيتها فى البجاد وأعزل (٦)
ودهرى فيكفينى القليل وأننى أؤوب إذا ما أبت لا أتعل
وكنت صفى النفس لا شىء دونه فقد صرت من إفصا حبيبي أذهل
بطيء عن الداعى فلست بأخذ إليه سلاحى مثل ما كنت أفعل
تدارك ما قبل الشباب وبعده حوادث أيام تضر وأغفل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل (٧)
يود الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل
دعاني الغواني عمهن وخلتني لى اسم فلا أدعى به وهو أول

(١) جمع بدل وهى التغيرات (٢) كفاف اللحم أى مثله وهو أى اللحم
(٣) حط الجلد صقله بالمحط وهو حديدة لذلك (٤) يقصد المنخل الشاعر ويضرب
المثل بعدم أوبته (٥) أضحى أبقى مقيماً فى الضحاء (٦) الطلع العرج والبجاد
للحاف (٧) ينوء يقوم فى ثقل

وقال المرقش الأعكبر يصف فرسا

غدونا بضاف كالعسيب مجلل طويناه حتى عاد وهو ملوح (١)
أسيل نبيل ليس فيه معابة كيت كلون الصرف أرجل أقرح (٢)
على مثله تأتي الندي مخايلا وتعب سرأ أي أمريك أفلح
وتسبق مطروداً وتلحق طاردا وتخرج من غم المضيق وتجرح
تراه بشكات المدجج بعدما يقطع أقران المغيرة يجمع (٣)
يجم جوم الحسى جاش مضيقه ويردي به من تحت غيل وأبطح (٤)
شهدت به في غارة مسبطرة يطاعن أولاهها سواء ويطرح (٥)

وقال الشماخ بن ضرار يصف قوسا

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحرائز (٦)
نمت في مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز (٧)
فما زال ينجو كل رطب ويابس وينغل حتى نالها وهو بارز (٨)
فأنجي عليها ذات حد غرابها عدولا وأسطا العضاه مشاوز (٩)

(١) الضافي الطويل الذيل والمجلل ذو الجمل والعسيب الجريدة لا خوص
فيها وملوح مغبر من الشمس (٢) الاسيل الطويل والنبيل الغليظ والصرف الخمر
خالصة غير ممزوجة والارجل المحجل والاقرح الاغر (٣) الشكات جمع شكة
وهي السلاح والمدجج المستور في سلاحه والمغيرة الخيل (٤) الحسى البئر ويجم
يفيض وجاش فار ويردي يسير الرديان والغيل الماء الجاري والابطح المسيل
فيه دقاق الحصا (٥) المسبطرة الممتدة (٦) الضالة السدرة البرية والشذب العيدان
والخرائز قطع الشجر (٧) من غيلها في منبتها ومتلاحز متضايق داخل
(٨) ينجو يقطع وينغل يدخل (٩) ذات الحد الفاس وغرابها حدها
والعضاه جمع عضاهة شجر والمشاوز المشاكس

فلما اطمأنت في يديه رأى غنى أحاط به وازور عنم يحاوز ()
فأمسكها حامين يطلب درأها وينظر منها ما الذي هو غامز (٢)
أقام الثقاف والطريدة متنها كما أخرجت ضغن الشموس المهامز (٣)
فوافى بها أهل المواسم فانبرى لها يبيع يغلى بها السوم راز (٤)
فقال له بايع أخاك ولا يكن لك اليوم عن ربح من البيع لاهز (٥)
فظل يناجى نفسه وأميرها أيأبى الذى يعطى بها أو يحاوز (٦)
فلما شراها فاضت العين عبرة وفي الصدر حزاز من الوجد حامز (٧)
فذاق فأعطته من اللين جانباً كفى ولها أن يفرق السهم حاجز (٨)
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز (٩)
هتوف إذا ما خالط الظي سهمها وإن ريع منها أسلمتة النوافز (١٠)
كان عليها زعفراناً تميره خوازن عطار يمان كوازن (١١)
إذا سقط الانداء صينت وأشعرت حبيراً ولم تدرج عليها المعاوز (١٢)
وقال النابغة الجعدي يصف ذئباً افترس جؤذراً

فأمسى عليه أطلس اللون شاحيا شحيحاً تسميه النباطى نهسراً (١٣)
طويل القرا عارى الاشاجع مارد كشق العصا فوه إذا ماتضورا (١٤)

(١) ازور مال ويحاوز يجمع ويضم (٢) درأها دفعها (٣) الثقاف خشبة
التقويم والطريدة قهبة التعديل والمهامز جمع مهاز (٤) الرائز المجرب الخبير
(٥) لاهز صاد (٦) يحاوز يقبل (٧) شراها باعها وحامز ممض محرق (٨) ولها
أن يفرق السهم حاجز أي لها حاجز من أن يفرق السهم (٩) أنبض فى القوس
أصاتها أو حرك وترها لترن (١٠) النوافز القوائم (١١) تميره تسيله

(١٢) أشعرت ألبست والمعاوز جمع معوز وهو الثوب الخلق (١٣) شاحبا

تأخاه (١٤) القرا الظهر والاشاجع السيقان

فبات يذكيه بغير حديدة أخوقنص يمس ويصبح مقفرا (١)
 إذا ما رأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفرفرا (٢)
 هذا وباب الوصف حافل لا تنفيه النماذج حقه مما طال إيرادها فلنتركه على
 هذا القدر على أن نستكمل بعض نقصه من المعلقات بعد ولذا جعلنا المختار منه
 هنا من غير الأنماط الواردة فيها إلا ما كان من وصف الفرس ومع ذلك نحا
 المرقش فيه غير ما نحا عنترة وامرؤ القيس
 هذا وقد حدنا عن الاختيار من المعلقات لأن لها دراسة بعد

٣ - تسجيله كثيرا من أحوال العرب

لم تدع فنون الشعر الجاهلي ما ذكرنا منها وما لم نذكر خلقا من أخلاق
 العرب في ذاك العهد إلا صورته ولا وجدانا من وجداناتهم إلا أظهرته كما
 لم تدع في بيئتهم كائنات محسودون وصف ولا في عرفهم شيئا من عادة أو عقيدة
 دون ذكر وحسبنا ما تقدم من نماذج في الخلق والوجدان والوصف
 أما الأوابد وهي ما جرى عليها العرف العربي عن عقيدة أو عادة فانا عاطفون عليها
 هنا بذكر الشواهد الشعرية على الكثير منها دون أن تفصل الكلام في العادة
 عن العقيدة لأن معظم العادات كان منشؤه الاعتقاد حقاً كان أم باطلا
 ١ - قال رجل في الاستقسام بالأزلام وكان ذوا الخلصة من الأصنام التي
 يستقسم بأزلامها بين مكة والمدينة فقتل أبوه فاراد الطلب بثأره فذهب إليه
 فاستقسم عنده فخرج السهم بنهيه فقال

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا لم تنه عن قتل العداة زورا

(١) يذكيه يذبحه ومقفرا جائعاً (٢) الكراع بضم الكاف الساق أو

مستدقه وفرفر كسر وقطع وحرك ونفض

٢ — وقال ابن مقبل يفتخر بالايثار والنجر لها

يا بنت آل هشام هل علمت إذا أمسى المراضيع في أعناقها خضع
أنى أتمم أيسارى بذى أود من فرع شوحط ضاح ليظه فرع
يحدو قتائله بيض غطارفة شم الانوف مغاليق الضحى ضلع
أولو الوفاء ولو أدوا قداحهم ولا يزال لهم من لحمها قنع

٣ — وقال جريبة بن الاشيم الفقعسى لابنه يوصيه بالعقر على قبره إذا مات

إذا مت فادفنى بحراء ما بها سوى الاصرخين أو يفوز راكب
فان أنت لم تعقر على مطيتى فلا قام فى مال لك الدهر حالب
ولا تدفنى فى صوى وادفنى بديمومة تنزو عليها الجنادب

٤ — وجريبة هذا هو الذى يقول لابنه أيضا فى البلية

ياسعد إما أهـلـكن فانى أوصيك إن أخا الوصاة الاقرب
لا أعرفن أباك يحشر خلفكم تعباً يخر على اليمين وينكب
فاحمل أباك على بهير صالح وتقى الخطيئة انه هو أصوب
ولعل لى مما جمعت مطية فى الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

٥ — ومن أشعارهم فى ضرب الثور لتشرب البقر قول نهشل

كذلك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء

ومثل ذلك أشعارهم فى كى السليم ليبرأ الاجرب قال النابغة

لكلفتنى ذنب امرى وتركته كذى العر يكوي غيره وهو راتع

وقد استخدم الشعراء هذين المعنيين كثيراً فى الرجل يعاقب وغيره الجانى

قال الشاعر

فلا تجعلوها كالبقيير وفعلها يكسر ضرباً وهو للورد طائع

وما ذنبه إن لم ترد بقراته وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

وقال آخر

فألزمتني ذنباً وغيرى جره حنانيك لا تكو الصحيح بأجرها

٦ — وفي مذهبيهم في تعليق الحلى والجلجل على اللديغ ويسمونه سليماً
تفاؤلاً ليبراً يقول شاعرهم

كاني سليم ناله كلم حية تري حوله حلى النساء موضعاً

ويقول آخر

فبت معنى بالهموم كأننى سليم نفي عنه الرقاد الجلجل

٧ — وقالت امرأة في زوال حلاً الشفة بوضع المنخل على رأس المصابها
ألا حلاً في شفة مشقوقة فقد قضى منخلنا حقوقه

٨ — ويروون أن جنية أرادت صبي قوم بسوء فلم تدر عليه فلامها

قومها فقالت تعتذر إليهم

كان عليه نقره ثعالب وهرره والحيز حيز السمرة

وهذا على بعده من الحقيقة يوضح عقيدة بعض العرب في أن تعليق سن الثعلب
والهرة وصمغ السمرة على الصبي يقيه شر الجنة وكذلك كانوا يعتقدون في
تعليق كعب الارنب وأشياء أخرى

٩ — وقال طرفة في تبديل الشمس أسنان الاثغار بخير منها إذا قذفت في عينها

بادن نجلو إذا ما ابتسمت عن شتيت كقاحي الرمل غر

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الاشر

١٠ — ومن عقائدهم التي يكاد يجمع عليها الهامة وهي طائر يزعمون

خروجه من رأس كل ميت فاذا كان قتيلاً لا تزال تقول اسقوني اسقوني فاني

صدية حتى يؤخذ بشاره وفي ذلك يقول بعضهم يوصى ابنه

ولا تزقون لى هامة فوق مرقب فان زقاء الهام المرء عائب

تنادى ألا اسقوني وكل صدي به وتلك التي تبيض منها الذوائب

وقال آخر يهجو ويعير

وان أخاكم قد علمت مكانه بسفح قبا تسقى عليه الأعاصر
له هامة تدعو إذا الليل جنبها بنى عامر هل للهلالى نائر
١١ - وقال بعضهم فى رثاء شريف تتخطاه المقاليت « اللاتى لاتعيش

لهن أولاد»

بنفسى الذى تمشى المقاليت حوله يطأن له كشحا هضما مهشما
× ١٢ - وقريب من هذا ما كانوا يعتقدونه من أن دم الشريف يشفى من
الكلب قال عبد الله بن الزبير الاسدى

من خير بيت علمناه وأكرمه كانت دماؤهم تشفى من الكلب
× ١٣ - ومن أشعارهم فى كى ألتى العاشق ليذهب عشقه ويشفى منه

قول الشاعر

شكوت إلى رفيقى اشتياقى فجاءانى وقد جمعا دواء
وجاءا بالطبيب ليكويانى ولا أبغى عدمتكما اكتواء
ولو أتيا بسامى حين جاءا لعاضتنى من السقم الشفاء
× ١٤ - أما شق الرجل برقع المرأة وشق المرأة ليدوم جبهما فمأورد
فيه قول سحيم عبد بنى الحسحاس

إذا شق برد شق بالبرد برقع دوايك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى والى الهوى يغرى بهذى الوسواس
١٥ - ومن أشعارهم فى إذهاب خدر الرجل بذكر محبوب قول الشاعر
صب محب إذا ما رجله خدرت نادى كبيشة حتى يذهب الخدر

١٦ - وما يقرب من هذا أن الرجل منهم كان إذا خلجت عينه توقع
رؤية من يحب غائبا أو بعيداً وفى ذلك يقول بعضهم ..

إذا اختلجت عيني تيقنت أننى أراك وان كان المزار بعيداً
 ١٧ وأشعارهم فى النيران المتنوعة التى اعتادوا إيقادها لما تقدم كثيرة
 متنوعة أيضاً نذكر منها هنا الشواهد على نارين غريبتين أحدها نار البقر أو
 الاستمطار وذلك أنهم كانوا إذا حبس عنهم الحيا عمدوا إلى حزم من السلع
 والعشر وهما نوعان من النبات شديداً الاتهاب فعقدوها فى أذنان البقر
 وأصعدوها فى جبل وعر ثم أوقدوا فيها وساقوها قبل المغرب فال أعرابي وقد
 فعلوا ذلك فلم يمتطروا ثم أمطرهم الله بعد

شفعنا ببيقور الى هاطل الحيا فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدياً
 فعدنا الى رب الحيا - فأجارنا وصير جدي الارض من عنده خصباً
 والثانية نار السعالى والسعالى أخبت الغيلان وهى نار يقولون انها كانت تقع
 للمتغرب المتقفر فيأنس ويهتدى وفى ذلك يقول عبيد بن أيوب :

ولله در الغول أى رفيقة لصاحب دو خائف متقفر
 أرنت بلحن بعدلحن وأوقدت حوالى نيرانا تبوخ وتزهر

١٨ — وعلى ذكر الغيلان وهى السحرة من الجن والشياطين كما كانت
 العرب تعتقد نقول إنها كانت تعتقد أيضاً أن الجن والشياطين تسكنهم فى
 بلادهم ولذلك كانوا يعوذون بهم يؤيد ذلك قوله تعالى « وانه كان رجال
 من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » وقد سجل الشعر ذلك
 بإفاضة قال بعضهم :

قد بت ضيفاً لعظيم الوادي المانع من سطوة الاعادى راحتى فى جاره وزادى
 وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البعيد بسيد معظم محيى
 اصبح ياوى بلوى زرود ذى عزة وكاهل شديد

وقال غيرهما

ياجن أجزاء اللوى من عاج عاذ بكم ساري الظلام الدالج
لا ترهقوه بغوى هائج

وقال رابع

هيا صاحب الشجر اهل أنت مانعى فانى ضيف نازل بفنائكا
وانك للجنان فى الأرض سيد ومثلك آوى فى الظلام الصعالك

واستعاذ رجل ومعه ولد بعظيم واد فأكل ابنه الاسد فقال

قد استعذنا بعظيم الوادى من شر ما فيه من الاعدى فلم يجرنا من هز برعاد
١٩ — ولقد تهادى العرب فى هذه العقيدة حتى ادعى بعضهم مخالطة الجن
ومكالتهم واستضافتهم بل والنزوح منهم وتناسلهم ولهم فى ذلك أشعار وأقاصيص
فهذا جذع بن سنان يقول

أتوا نارى فقلت ممنون أنتم فقالوا الجن قلت عموا عباحا

وسمير بن الحارث الضبى يقول

أتوا نارى فقلت ممنون قالوا سراة الجن قلت عموا ظلما

وهذا عمرو بن ربوع يزعم أنه تزوج من غول وولد له بنون عرفوا ببني
السعلاة وفى ذلك يقول شاعر يهجوهم

يا قبح الله بنى السعلاة عمرو بن ربوع شرار الناة ليسوا بأبطال ولا اكيات
وتأبط شرا يدعى أنه قابل غولا اعترضته فقتلها فقال

لهان على جهينة ما ألقى من الروعات يوم رحن بطان

لقيت الغول تسرى فى ظلام بسهب كالعباءة صحصحان

م - ١٨ أدب

فقلت لها كلانا نضو أرض أخو سفر فخلي لي مكاني
 فشدت شدة نحوي فأهوى لها كفي بمصقول يمان
 ٢٠ - ومن هذه الناحية من الاتصال ما كان يزعمه العرب وشعراؤهم من أن
 لكل شاعر شيطانا يلقي اليه بالشعر وكانوا يعتقدون بوجه عام أن للشعر شيطانين
 الهوبر مجيد والهوجل مفسد روى أن رجلا من تميم أتى الفرزدق فقال إني قد
 قلت شعرا فانظره قال أنشدني فقال
 ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق ثم قال يا ابن أحمى ان للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر
 والاخر الهوجل فمن اتفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه ومن اتفرد به
 الهوجل فسد شعره وانهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في
 أوله فأجدت وخالطك الهوجل في آخره فأفسدت ومن هنا كانوا يسمون
 الشعر رقى الشياطين قال جرير

رأيت رقى الشيطان لا تستغزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا
 ولهذه العقيدة كانوا يسمون لكل مجيد من الشعراء شيطانا خاصا وكانوا
 يتحاكمون إلى الجنة إذا ظفروا بهم في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض ولهم
 في ذلك حكايات وأقاصيص نسوق بعضها على سبيل التمثيل

١ - ذكر مطرف الكنتاني عن ابن دأب عن رجل من أهل زرود عن أبيه
 عن جده أنه خرج على فحل له في طلب لقاح ضالة حتى دفع إلى خيمة بفنائها
 شيخ كبير فدارت بينهما مكالمة انتهت بطلبه من هذا الشيخ أن ينشده من
 أشعاره فأنشده

قفنا بك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فلما فرغ قال له لو أن امرأ القيس ينشر لردعك عن هذا الكلام فقال له أنا والله
منحته ما أعجبك منه قال فقلت له ما اسمك قال لافظ بن لاحظ قلت اسمان
منكران قال أجل فعلمت أنه من الجن فقلت له من أشعر العرب فأنشأ يقول
ذهب ابن حجر بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يعاب زياد
لله هاذر إذ يجود بقوله ان ابن ماهر بعدها لجواد
قلت من هاذر بن ماهر قال صاحب زياد الدياني وهو أشعر الجن وأضنهم
بشعره فاعجب منه كيف سلسل لاء خى ذبيان به ولقد علم بنية لى قصيدة له
له من فيه إلى أذنهما ثم صرخ بها اخرجى فدى لك من ولدت حواء فخرجت
فأنشدتني .

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبات والفؤاد بها حزين
حتى أتت على قوله منها

فألفيت الامانة لم تخنها لذلك كان نوح لا يخون
فقال والله لو كان رأى قوم نوح فيه كراى هاذر ما أصابهم الغرق قال الرجل
حففت البيتين ثم نهض بي الفحل فعدت إلى لقاحى
ب — وحدث مظعون بن مظعون الاعرابى عن أبيه أنه خرج على بعيره حتى
إذا كان فى سفح جبل رأى على قنته رجلا عليه أطمار بالية ونجمت بينهما
محاوره انتهت بقوله للرجل أتروى من أشعار العرب شيئا قال نعم أروى
وأقول قولاً فائماً مبرزاً قال فقلت أرنى من قولك ما أحببت فأنشأ يقول
طاف الخيال علينا ليلة الوادى لآل أسماء لم يلمم لميعاد
حتى فرع منها فقلت لهذا الشعر أشهر فى معد بن عدنان من ولد الفرس الا باق
فى الدهم العراب هذا لعبيد بن الارض الاسدي فقال ومن عبيد لولا هبيد قلت
ومن هبيد فأنشأ يقول

أنا ابن الصلادم أدعى الهيبه مدحوت القوافى قرمى أسد
 عبي-دا حبوت بمأثوره وأنطق بشارا على غير كد
 ولاقى بمدرك رهط الكية ت هلاذا عزيزا ومجدا وجد
 منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هـذا معد
 فقلت أما عن نفسك فقد أخبرني فأخبرني عن مدرك فقال هو مدرك بن واغم
 صاحب الكيت وهو ابن عمى

ج - وذكر شيخ من أهل البصرة أنه خرج في ليلة مقمرة على جمل له الى
 الصحراء فأبصر شبحا كهيفة انسان على ظهر ظليم قد خطمه وهو يقول
 هل يبلغنيهم إلى الصباح هقل كأن رأسه جماح

فعلم أنه جنى قال فقلت له من أشعر الناس قال الذى يقول
 وما ذرفت عيناك الا لتضربني بسهميك فى أعشار قلب مقتل
 فعلمت أنه يريد امرأ القيس قلت ثم من قال الذى يقول

وتبرد برد رداء العرو س فى الصيف رقرقت فيه العبير
 وتسخن ليلة لا يستطيع- مع نبا حابها-الكلب إلا هريرا

فعلمت أنه يريد الاعشى قلت ثم من قال الذى يقول
 تطرد القر بحر صادق وعيك الصيف ان جاء بقر
 فعلمت أنه يريد طرفة وانقطع الحديث

د - وحدث الاعشى أنه خرج يريد قيس بن معد يكرب بحضر موت فضل
 حتى وقعت عينه على خباء ببابه شيخ فانتسب له وأفهمه أنه يقصد قيسا فقال
 له حياك الله أظنك امتدحتك بشعر قال نعم قال فأنشدنيه فأنشدته
 حلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدا لها

فقال حسبك هذا البيت أهذه القصيدة لك قلت نعم قال من سمية قلت لا أعرفها
انما هو اسم القى فى روعى فنادى باسمية اخرجى أنشدى عمك قصيدتي التي
مدحت بها قيس بن معديكرب فاندفعت تنشد حتى أتت على آخرها لم تخرم
فيها حرفا ثم قال هل قلت شيئا غير ذلك قلت نعم كان بينى وبين ابن عم لي
يقال له يزيد بن مسهر ما يكون بين بنى العم فهجاني فهجوته فأثخنته قال ماذا
قلت فيه قلت قلت

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
فقال حسبك من هريرة قلت لا أعرفها وسبيلها سبيل التي قبلها فنادي يا هريرة
أنشدى عمك قصيدتي التي هجوت بها يزيد بن مسهر فأنشدتها كسا بقتها فسقط
في يدي وتحيرت وتغشيتني رعدة فلما رأى ما نزل بي قال ليفرخ روعك يا أبا
بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذي التي على لسانك الشعر قال فسكنت نفسي
ثم داني على الطريق وأراني سميت مقصدي . وفي مسحل هذا يقول الاعشى
وما كنت شاحوذا ولكن حسبتي اذا مسحل يسدي الى القول أعاق
شريكان فيما بيننا من هوادة صفيان انسى وجن موفق
يقول فلا أعيا بقول يقوله كفاني لاعى ولا هو أخرق
ويقول فيه وفي جهنم شيطان فرو بن قطن

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له جهنم جدعا للهجين المذم
وهذا مذهب شائع قال حسان بن ثابت
ولى صاحب من بنى الشيصبا ن فطورا أقول وطورا هوه
وقال أبو النجم

انى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وقال آخر

اني - ان كنت صغير السن وكان في العين نبو عنى

فان شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن

والرأى في هذا وأمثاله أن الجن مع وجودها لا يقع منها للانسى ما تدعى العرب
وانما هذه تخيلات صوروها ليرفعوا من قيمة الشعر وأنه كاسحر لا ينبغي
صدوره إلا عن الجن الذين هم في اعتقادهم مصدر العبقرية في كل شىء ولذلك
يقولون عن كل معجب عبقرى نسبة الى عبقر وما عبقر عندهم إلا واد للجن
وليس هذا الخيال قاصرا على العرب وحدهم اذ تشاركهم فيه الاظم القديمة
جميعا بل كان معظمها يعبد هذه القوى الخفية من خيرة طمعافى خيرها وشريرة
خوفا من شرها . أما تلك الافاعيص فهي أساطير حاكوها كما حاكوا مضارب
الامثال الفرضية وكما وضعت سائر الاظم أساطيرها وليس عليهم في ذلك
ما يعاب ففي الناحية الادبية ينبغي أن يطلق من عنان الخيال ما شاء الخيال

٤ - تأثيره و منزلة رجاله

لقد كان للشعر في العرب تأثير ما أبلغه من تأثير ولرجالهم بينهم مكانة

ما أرفعها من مكانة ذلك انهم كانوا ذوى فطر سليمة ونفوس حساسة وكان
الشعر طبيعة فيهم يمزج منهم بالدم واللحم لا يزالون يقولونه ويستوحون سماءه
فيمتقدون خياله ويخضعون لاحكامه . وكان للشعراء عليهم نفوذ وسلطان
لا يقل شأننا عن نفوذ الصحف السيارة الآن على الافراد والجماعات فكانت
كل قبيلة تغتبط بكثرة شعرائها وتمتخيز من بينهم اقوام حجة وابلغهم قولا
ليكون المشيد بحاسنها ومفاخرها الذاب عن احسابها واعراضها . أثر فاما اثر

أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى لتهنئتها فصنعت
الاطعمة ومدت الموائد وتباشر الرجال والولدان واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر
كما يصنعن في الاعراس . واشدة ما كان للشعر من تأثير جاوز فيه المنطق وتعدى
المعقول نسيبه العرب إلى الجن وسمو الشعراء بالساحرين قال رؤبة

لقد خشيت أن تكون ساحرا راوية مرا ومرا شاعرا

وكان ذلك عاما في كل باب من أبوابه كان يبلغ الشاعر ما لا يبلغ غيره إذا
نسب رقق القلوب القاسية واستنزل العصم العاصية وإذا وصف أراك ما لم تر
كأنه المرئي وقد يكون تمثيلا لا يستند إلا إلى الخيال والتصوير واذ رثي. أثار
الشجون وحرك مكامن الذكريات فإذا ما فخر بالحماسه والاستبسال حجب إلى
الجنباء القتال وأرخص الموت على مغلى الحياة قال معاوية بن أبي سفيان اجعلوا
الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم فلقد رأيتني ليلة الهزير بصفين وقد أتيت بفرس
أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب من شدة البلوى فما حملني
على الإقامة إلا أنبيات عمرو بن الاطنابة

أبت لي همتي وأبي بلائي وأخذى الحمد بالثمن الريح
وإقحاصي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن ما أثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح

وابن الاطنابة كما تقدم من شعراء الخزرج الجاهليين

أما شعراء المديح والمهجاء فقد كانوا شغاف أقوامهم وسموم أعدائهم لا يزالون
لقبائهم يحمون سلطانها ويرفعون بنيانها كما يذبون عن حياضها ويدافعون عن
وردها وأمر احتفاء القبائل بشعرائها كثير الحوادث مروى الأءشعار هو - كن

الذى نريده أقوى حجة فى الاستدلال على تأثير الشعر أن الشاعر كان إذا تعرض لقبيلة بهجاء وفيها من الشعراء من يخشى لسانه ويتقى هجوه لم يك أمام قبيلته فى دفع ما تحذر الا حمله الى من هجاهم متبرئة منه ومسلمة فيه وهذا ما حدث حين هجا عبد الله بن الزبير السهمى بنى قصى فقد رفعه السهميون الى عتبة بن ربيعة خوفا من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعرا شديدا العارضة قذع الهجاء فلما وصل عبد الله اليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه فقال عبد الله غير مستنكر ما فعلت عشيرته

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وان صالحت اخوانها لألومها

فان قصيا أهل مجد وعزة وأهل فعال لا يرام قديمها

وكان الزبير غائبا بالطائف فلما وصل الى مكة وعلم الخبر قال

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا

ثيابهم سمال أو طمار بها ودك كما دسم الحيت

ولكننا خلقنا إذ خلقنا لنا الخيرات والمسك الفتيت

وكان الشاعر اذا رضى لنفسه أن يتجاوز بمدحه وهجائه قبيلته وأعداءها تطلعت اليه القبائل الاخرى فأخذت تقربه رجاء مدحه فيها وهجائه لمناظرها كما كان من الخطيئة فقد استضافه الزبرقان بن بدر من بنى بهدلة وقصرت امرأته فى اكرامه وهو غائب فأخذه بغيض بن عامر من آل لائى بن شماس وبالغ فى اكرامه فكان خير ما قاله من شعر هجاء ومدح فى هذين الحين وقد دلف شئ منه فى النماذج

على أن التجاسد على الشعراء لم يك قاصرا على القبائل بل تعداها الى

المملوك فهذا النعمان بن المنذر ملك الحيرة تبصر كيف كان اجتذابه للنابعة

يمدحه ويمدح آل بيته وكيف حسده عليه الغساسنة ملوك الشام فأعظموا في
حبائه حتى مدحهم ثم كيف غضب النعمان عليه لذلك غضبا سارت باعتذارات
النابعة عنه الامثال ومع ذلك لم ينل من النعمان رضا لامن الشركة في هذا الباب
بين متناظرين ليست مما يطاق

ومن غريب تأثير الشعر أن الشاعر كان اذا وصم سيدا لم يجد من يغسل
عنه ذلك الا هذا الشاعر نفسه ذكروا أن بشر بن أبي خازم الاسدي لما
حمل على هجاء أوس بن حارثة بن لام الطائي فهجاه بما تقدم بعضه ووقع
بشر أسيرا عند بني نبهان من طيء اشتراه أوس بمائتي بعير ولما أخذه قال له
هجو تني ظالما فاختر بين قطع لسانك وحبسك في سرب حتى تموت وبين قطع
يديك ورجليك وتخليه سبيلا هكذا ذكر الرواة ورأى أن سياق القول يقتضى
قرن التخلية بقطع اللسان والحبس بتقطيع اليدين والرجلين وأن هذا تحريف
قالوا فسمعت أمه وهى سعدى بنت حصن من سادات طيء فقالت لا أوس يا بني
لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة فأصبحت والله لأرجوك لنفسك خاصة
أزعمت أنك قاطع رجلا هجأك فمن يمجو اذن ما قال فيك قال فما أصنع به قالت
تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك وتأمر له بمائة ناقة حتى يغسل مديحه هجاءه
ففعل فامتدحه فأكثر قال أبو محمد الاخفش مدح بشر أوسا وأهل بيته مكان
كل قصيدة هجاء بها قصيدة وكان هجاءهم بخمس فمدحهم بخمس

ومن مدائح فيه قوله من قصيدة والخطاب للناقة

الى أوس بن حارثة بن لام لربك فاعملى ان لم تخافى

فما صدع بنجة أو بشرج على زلق زوالق ذى كهاف

نزل اللقوة الشغواء عنها مخالبا كأطراف الأشفاني
 بأحرز موئلا من جار أوس اذا ماضيم جيران الضعاف
 وماليث بعثر في غريف تغنيه البعوض على النطاف
 مغب مايزال على أكيل يناغى الشمس ليس بذى عطف
 بأبأس سورة بالقرن منه اذا دعيت نزال لدى النقف
 وماأوس بن حارثة بن لام بغمر في الامور ولا مضاف

ومن ذلك ما كان من حسان بن ثابت في بنى عبد المدان هجاءهم ببسطة
 أجسامهم وكانوا يفخرون بها فقال

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال واحلام العصافير
 فلم يزالوا ينجحون منها حتى مح ذلك عنهم بقوله

وقد كنا نقول اذا التقينا لذى جسم يعد وذى بيان
 كأنك أيها المعطى لسانا وجسما من بنى عبد المدان

وأغرب مما تقدم في تأثيره أنه كان اذا تعرض لنا به أنزله من ذروته فاذا أعان
 حاملا رفعه من وهده فممن قضى على مكانتهم الربيع بن زياد وكان من خواص
 النعمان لم يزل ينادمه ويؤاكلة حتى سمع فيه وهما يا كلان أرجوزة لبيد التي يقول
 فيها « مهلا أبيت اللعن لا تأكل دعه » وفيها إفذاع فرفع يده عن الطعام فقال
 الربيع أبيت اللعن كذب الغلام وأراد الاعتذار فقال النعمان

قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا فما اعتذارك من قول اذا قيل

ثم حجبه بعد ذلك فسقطت منزلته : ودمن رنعمهم بعد خمول المحاق الكلابى وكان
 مملقا كثير البنات قد رغب عن مصاحبه الا زواج فأشارت عليه امرأته أن
 يضيف الأعرشى وهو قادم إلى الموسم فيكرمه بكل ما يملك ليقول فيه قولاً تتزوج

به بناته وتحسن حاله ففعل وعرف الاعشى ذلك فلما أصبح بعكاظ أنشد قافيته
المشهورة التي يقول فيها فيما نحن بصدد

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل درددق

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

رضيعي لبان ندى أم تحالفا بأسحج داج عوض لا تفرق

ترى الجود يجري ظاهر افوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

فما أتم القصيدة الا والناس يتسالمون إلى المحلق يهتئونه ويخطبون بناته فلم تمس
واحدة منهن الا في عصمة رجل بين الفضل على ايها .

بل لقد بلغ من تأثير الشعر أنه كان يبيت احد يجعل مفخرة القميلة مسبة ومسبها

مفخره كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم لا يبيهم لما روى من أنه لقب به

لتعجيله قري الاضياف فلما هجاهم النجاشي بأبيات منها

وما سمي العجلان الا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

صاروا يستحيون منه وكان بنوا أنف الناقة ينجلون من هذا الاسم ويتجاوزونه

في نسبهم حتى قال الخطيئة

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الدنيا

صاروا يتناولون به ويمدون فيه أصواتهم بجهارة

بل بلغ من تأثيره أيضا أنه كان كما قيل

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

وقديما نفر عامر بن الطفيل إلى عاقمة بن ثلاثة مع تسوية الحكم وهو

هرم بن قطيبة بينهما بقول الاعشى

علقم ما أنت الى عامر بالناقض الاوتار والواتر

إن تسد الخوص فلم تعدهم وعامر ساد بني عامر

لى آخر ما قال

من ذلك كاء وغيره كان الشعراء ذوى منزلة يرجى وترغب كما تخاف
وترهب لا يزالون يستخدمون للوعيد والاغراء ويستعان بهم فى الاستعطاف
والاستشناع فى الجاهلية أغرى أوس بن حجر النعمان بن المنذر على بنى حنيفة
فنكل بهم واستشفع علقة الفحل الحارث الغسانى فى أخيه شاس وتسعين أسيرا
معهم من تبهم فأطاعتهم له جميعا وفى حياة النبي صلى الله عليه وسلم كان ما كان
للمسلمين والمشركون على ألسنة الشعراء من الفريقين وأمر رسول الله فى ذلك
وفى قبول الشفاعات من الشعراء ثابت معروف وما بعده فى سائر العصور
كثير مشهور ولا يكن لاداعى ونحن فى العصر الجاهلى أن نجاوزه الى ما خلفه
من عصور فيما كان للشعر من أثر وللشعراء من مكان

٥ — طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فيهم

ثم سبب تسميتها بهذا الاسم

ليس فى طبقات الشعراء من حيث عصور التاريخ خلاف فالكل مجمعون

على أنهم أربع طبقات جاهليون لم يدركوا الاسلام كأمى القيس وأدر كوه
ولم يقولوا فيه شعرا كبيد ونخضرمون أدر كوه وقالوا فيه شعرا كحسان
والخطيئة واسلاميون وهم من لم يدركوا الجاهلية ونهايتهم آخر العصر الاموى

كالفردق وجريز والاخلط ثم مولدون وهم الذين اختلطوا بشعوب الامم
الاجرى من الفرس والروم والمصريين وغيرهم منذ الدولة العباسية إلى
ماشاء الله

ولكن الخلاف كبير في تقسيمهم من حيث الشعر والشهرة في كل عصر
من هذه العصور والذي يعنينا الآن العصر الجادلى وأقصّد القول فيه ما كان
لأبي عبيدة معمر بن المثنى فقد جعله ثلاث طبقات وضع في أولها امرؤ القيس وزهيرا
والنابعة وفي ثانیها الاعشى ولبيدا وطرفة وفي ثالثها عنتره وعمرو بن كلثوم
وعروة بن الورد ودريد بن الصمة والمرقش الأكبر وحاتم الطائي وكأنه
سكت عن طبقة رابعة يوضع فيها الحارث بن حلزة وسائر الشعراء وبذلك
تفهم طبقة كل واحد من رجال المملقات . ولعل أطول تقسيم للطبقات ما فعل
ابن سلام فقد أوصلها الى عشر غير شعراء المرائى وشعراء القري العربية الخمس
وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين وغير شعراء اليهود في المدينة
وأكنافها ووضع في كل طبقة أربعة شعراء على ما في اتحاد العدد من تحکم لا يتفق
وطبيعة التقسيم فكان امرؤ القيس وزهيرا في الاولى ودهما النابعة والاعشى
وكان لبيد في الثالثة ودهما نابعة بنى جمعة وأبو ذؤيب الهذلى والشماخ بن
ضرار وكان طرفة في الرابعة ودهما عبيد بن الابرص وعلقمة بن عبدة النحل
وعدى بن زيد وكان عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنتره في السادسة
ومعهم سويد بن أبى كاهل وليس فيما لم نذكر من باقى الطبقات وهى الثانية
والخامسة والسادسة والثامنة والتاسعة والعاشرة أحد من رجال المملقات

فابن سلام على طول تقسيمه يتفق مع أبى عبيدة في أن المقدمين على جميع
الشعراء أربعة هم امرؤ القيس وزهيرا والنابعة والاعشى وهذا الذى يكاد ينعقد

عليه الاجماع غير أن الخلاف في أيهم المتقدم بالغ أشده فعلماء البصرة يقدمون
 امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الاعشى والحجازيون يقدمون زهير
 والنابعة والذي يجدر بالباحث اتبعه عدم الاعتداد بهذا الخلاف لأنه لفظي
 أكثر منه في الصميم إذ لكل وجهة نظر تخالف وجهة الآخر. فمن احتج
 لامرئ القيس نظر الى سبقه في ابتداع أشياء استحسنها العرب واتبعه فيها
الشعراء كاستمفاف الاصحاب وبكاء الاطلال والاكثر من التغزل وتشبيهه
النساء بالبيض والظباء والخيول بالعقبان والوحوش وأنها قيد الاوابد وغير
 هذا ومن احتج لزهير نظر الى أنه أحكمهم شعرا وأبدعهم من السخف وأجمعهم
 لكثير من المعاني في قليل من الالفاظ وأنه كان لا يعاقل بين الكلام ولا
 يتبع حوشيه وأنه مع بلوغه في المدح لم يمدح أحدا بغير ما هو فيه. ومن احتج
 للنابعة قال إنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتا
 وكان شعره منشور لا تكلف فيه. أما أصحاب الاعشى فقالوا إنه أكثرهم
 عروضا وأذهيهم في الشعر (فتونا وأكثرهم طويلا جيدة ومدحا وهجاء ونظرا
 وصفة هكذا قال ابن سلام وذكر أنه شهد خلفا وقد قيل له من أشعر الناس
 فقال ما ينتهي هذا الى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب
 الناس وأجمل الناس

والذي عليه أكثر الرواة في المعلقة أنها كما جمعها حماد وأوردها الزوزني
 سبع وهي بالترتيب قفانك لامرئ القيس ، نخولة أطلال لطرفة ، أمن أم
 أوفى لزهير ، عفت الديار للبيد ، ألاهي لعمر بن كلثوم ، هل غادر الشعراء
 لعنترة ، آذنتنا يمينها للحارث بن حلزة وقد جعلها صاحب الجهرة ثمانيا باسقاط
 ابن حلزة وزيادة النابعة فالاعشى بعد زهير ومعلقة الأول «عوجوا فحيوا لنعم

دمنة الدار» و«علقة الثاني» ما بقاء الكبير بالاطلال» و«عدهم لميد فعمرو فطرفة
فعنتره. أما التبريزي فجعلها عشرة بزيادة ثلاث على السبع اثنتين للنابعة والاعشى
كما فعل صاحب الجهرة ولكنهما «بادار مية بالعلياء فالسند» للنابعة، «ودع هريرة
ان الركب مرتحل» للاعشى ثم واحدة لميديه «أقفر من أدله ملحوب» وقد
ألحق بها قصيدة ثمانية للاعشى هي «ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا»

وفي سبب تسميتها بالمعلقات خلاف. فابن عبد ربه يقول إنه تعليقها على
الكعبة وهذا كلاله (وقد بلغ من كلف العرب بالشعر ونفضيلها له أن عدت
سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبت بها بماء الذهب في القباطي المدرجة
وعلقها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهب امرئ القيس ومذهب زهير والمذاهب
سبع يقال لها المعلقات) وقد وافقه على ذلك ابن رشيق وابن خلدون إلا أن
الآخر لم يقيد التعاق بالاستار ولا الكتابة بماء الذهب ولا في القباطي وقال
بقوله صاحب الخزانة

وأبو جعفر النحاس وكان معاصرا لابن عبد ربه ينكر التعليق على الكعبة
ويقول إنه لا يعرفه أحد من الرواة مستندا في ذلك على أن حمادا حين جمعها
قال هذه هي المشهورات فسميت القصائد المشهورة ولو كانت علقت على
الكعبة لاعطاها هذا الاسم . وقد أخذ المستشرقون بهذا الرأي على زعم أنه
لم يوجد للتعليق أثر ولا ذكر حين تهدمت الكعبة وجددت على عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعلى زعم أن العرب لا تدنس الكعبة بتعليق أمثال شعر
امرئ القيس عليها ولكن هذين الزعمين ليسا بالدلائل القاطعين فان التأسيس
ليس مما تراه العرب في الشعر لما له عندهم من عظيم المكانة وهذا عبد الله بن عباس
على منزلته كان يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع شعر

ابن أبي ربيعة فلا ينكر عليه ذلك وأما عدم وجود أثر أو ذكر فسببه أن التعليق لم يك دائما بل في فترات غير طويلة لاتعدو الموسم الذي قيلت فيه المعلقة وقد ذهب كل ذلك قبل الاسلام هذا على أن تعليق الاشياء الهامة على الكعبة كان من دأب العرب جاهلية واسلاما فقد علق قريش الصحيفة التي تآمرت فيها على قطيعة بنى هاشم وعلق الرشيد عهده بالخلافة للائمة والمؤمنين.

والذين ينكرون هذا التعليق يتلمسون لهذه التسمية سببا غيره فمنهم من يقول ان الاشعار حينما كانت تنشد بهكاظ وتستحسن يبلغ ذلك ملك الخيرة فيقول علقوا لنا هذه بمعنى أثبتوها في خزائنا وقد روي أنه كان عند ملوك الخيرة ديوان مكتوب جمع فيه شعر الفحول على مارواه ابن سلام. ومنهم من يقول إن العرب كانت في الجاهلية اذا كتبت شيئا في الرقاع المستطيلة من الحرير أو الجلد أو نحوها خافت عليه قرص فأرة أو تأكل عثة طوته على عود أو خشبة وعلقته في جدار البيت أو الخيمة بعيدا عن الارض ولحرصهم على

المعلقات فعلوا بها ذلك فأخذت هذا الاسم

ذاك مجمل ما قيل في أسباب التسمية بالمعلقات وعندى أن أنتجها هو القول تعليقها على الكعبة والكن كما قال ابن خلدون والبغدادى لأن غيره لا ينهض بتلك التسمية على أية حال

﴿ ٦ — منزلة المعانيات من الشعر الجاهلي ﴾

أما منزلتها من الشعر الجاهلي ففي الذروة من منازلها لما امتازت به من طول القافية وتنوع الاغراض وكثرة ما ابتكر فيها من ضروب المعاني والتشبيهات على ما لاسلوبها من القوة والمتانة وهذه نبذة عن مشتملات كل معلقة وبعض النماذج لهذه المشتملات تبين ما ذكرنا من ميزات

١ - معلقة امرئ القيس

سلك امرؤ القيس في معلقته مسلکا صور فيه حياته فأرانا كيف كان
يعيش لاهيا لاعبا قد أرخى لنفسه العنان الى غير حد فلم يتصنع في احساس
ولم تستر وراءه تعبير بل ترك بيانه طوع شعوره لاسلطان لعقله على هواه ولا
فكالك للسانه عما يريد وكل ذلك في أغراض متجاسنة وأساليب يأخذ بعضها
بمحجز بعض

بدأها بنحير مطلع عرف على غير مثال سابق هو الوقوف على الأطلال
للبيضاء من ذكرى أحبائها الراحلين وقد تصور مرارة البين والفراق فوقف
أصحابه يؤسونه وهو لا يرى من شفاء في غير سفح العبرات قال
فقمانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقال

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل (١)
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وان شفاءى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
بهذا بدأ ثم انسل الى أن ذلك دأبه من أمى الخويرث والرباب وأخذنيصفهما
ويذكر أياما له معهما ومن ذلك خاص الى يوم الدارة مع فاطمة ابنة عمه
فأطال ماشاء وكان ختام محاورته معها ذلك العتاب

أفاطم مهلا بعض هذا التبادل وان كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
وان تلك قد ساءت لك منى خليفة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل (٢)

(١) السمر شجر ونقف الحنظل شقه عن حبه (٢) قيل ان المراد بالثياب هنا القلب

أغرک منى أن حبک قاتلى وانک مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناک إلا لتضربى بسهمیک فى أعشار قلب مقتل^(١)
وكانه عز على نفسه أن يكون الذلیل أمامها فأخذ يريها عزته مع غيرها وكان
من ذلك ديبه الى ربة خدر هو ذو منزلة منها على ما أوتيت من منعة وجمال أخذ
يصف آياته ويعدد محاسنه الى أن قال

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
الى مثلها يرنو الحليم صبابة اذا ما اسبكرت بين درع ومجول^(٢)
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواها بمنسل
وقد دفع به الدبيب الذى كان ليلا حيث يقول

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل^(٣)
إلى ذكر الليل وطوله على ذوى الهموم فيبلغ فى ذلك مبلغا كان آية الإعجاز
اسمع اليه يقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل^(٤)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت يذبل^(٥)
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان الى صم جندل^(٦)

-
- (١) السهمان هما المعلى بسبعة والرقيب بثلاثة وأخذها لا يبقى من أقسام البعير
شيئا لأنها عشرة (٢) اسبكرت استطالت والدرع ثوب الكبيرة والمجول ثوب
الجارية (٣) الاثناء الاوساط والمفصل الذى فصل بين خرزه (٤) الصلب
الظهر والعجز المؤخر والكلكل الصدر (٥) مغار الفتل شديده ويذبل جبل
(٦) مصامها سكونها والامراس الحبال

وهذا ليل قد أحياء ساهرا غير ليل الدبيب (والحديث ذو شجون) بقطع الاودية
سماعا لعواء الذئاب مشبها نفسه بها الى أن ولى فعدا الى الصيد بفرس أتى في
وصفه بما لم يسبقه اليه سابق ولا أدركه فيه لاحق قال

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هي-كل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
دير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بنحيط موصل (١)
له أيطلا ظي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقریب تنفل (٢)
وما إن عن له سرب حتى حمل عليه بفرسه الذي يقول فيه بعد أن أجاد نعتة
فعادى ع-داء بين ثور ونعجة درا كاد ولم ينضح يماء فيغسل
فطل طهاة اللحم من بين منضج صفيق شواء أو قدیر معجل (٣)
وهكذا قضى يومه مع صحبه ثم راحوا وكانت العشيّة عشية برق ينذر بمطر
وابل لم يلبث أن هطل

فأضحى يسح الماء حول كثيفة يكب على الاذقان دوح الكنهيل (٤)
ومر على القنان من نقيانته فأنزل منه العصم من كل منزل (٥)
ثم لم يترك جذع نخلة الا قعره ولا أطما الا جدله فعدا ثبير ورأس المجيمروها
جبلان كما قال

كأن ثبيرا في عرانيين وبله كبير أناس في بجاد مزمل (٦)

(١) الدبر الدار والخذروف نخلة الصبي (٢) أيطلا الظي خاصر تاه والسرحان
الذئب والتفتل الثعالب (٣) القدير ما يطبخ في القدر (٤) كثيفة موضع والكنهيل
شجر ودوحه عظيمه (٥) القنان جبل ونقيان المطر ما يتطير منه ومن زائده
(٦) ثبير جبل وعرانيين الوبل أوائله ومزمل صفة لبجاد تجوزا

كأن ذرا رأس المجيهر غدوة من الـيل والغشاء فلـكة مغزل (١)
وهـا أجمل موازنـته بين حالى المكاكى والسباع غب هذا السيل حيث يقول وبه
ختم المعلقة

كأن مـكاكى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلقل (٢)
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنايـش عنصل (٣)

٢ — معلقة طرفة

بدأ طرفة معلقته كما بدأ امرؤ القيس بالوقوف على الدمن وتذكر أهلها
الظاعنين واتفق معه لولا القافية فى البيت
وقوقا بها صحبى على مطيهم يقولون لانهلك أسى وتجلد
واـكنه خالف فى ذكر الهوادج وفى تشبيهها بالسفن وتشبيه حيازيم السفن
بيد المقابل قال

كأن حدوج الماـلكية غدوة خلـايا سفين بالنواصف من دد (٤)
عدولية أو من سفين ابن يامن يحور بها الملاح طورا ويهتدى (٥)
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المقابل باليد (٦)
ومنها انتقل الى التشبيب بفتاة تشبيها لم يطل فيه واـكنه أجاد وكان فيما قال
فى الشعر والوجه

(١) المجيهر جبل والغشاء النبات وفـكة المغزل رأسه (٢) المكاكى نوع
من الطيور والسلاف الخمر والمفلقل المخلوط بالقلقل (٣) الانبوش الاصل
والعنصل البصل البرى (٤) جمع حدج وهو مركب النساء والخلايا العظام والنواصف
المتسعات ودد واد عظيم (٥) نسبة الى عدول قبيلة بالبحرين وابن يامن رجل
(٦) الحباب الامواج والحيزوم الصدر والمقابل لآعب الفيال

وتبسم عن ألمى كأن منورا تخلل حر الرمل دعص له ندى (١)
سفته أية الشمس الا لثائه أسف ولم تكدم عليه بأمد (٢)
ووجه كأن الشمس ألقتردائها عليه نقى اللون لم يتخذ (٣)
وكل ذلك لم يكن له بالمقصود فقد مر عليه مرا قضاء لحق المطالع عند العرب
ثم انتقل الى ما يريد وأوله وصف الناقة فسلخ فيه أربعة وثلاثين بيتا لم يترك
شيئا من أوصافها الحسية الا وفاه بدقة وحسن أداء ولا من ضروب سيرها
نوعا الا أجراه في لباقة ورصف كلام وكان آخر ما أفرغ عليها من صفة
جعله اياها أداة نجدته المستصرخين ولو لم يقصد ~~والمطل~~

على مثلها أمضى اذا قال صاحبي ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى
وجاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد
اذا القوم قالوا من فتي خلت أنى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ثم ذكر سيرها وشبهها متبخترة فيه بالوليدة ترى ربه أذبال ثوبها الطويل فكان
التشبيه الثالث والعشرين في الناقة مما انفرد به دون سائر الشعراء ومن ثم عد
من وصافي الابل المبرزين وقد وصل هذه المفخرة التي انتهت اليها في هذا
الوصف بمفاخر تنبئ عن صفاته وأحواله فذكر أنه فوق نجدته وطيب أرومته
تلقاه في حلقة السادة إذ تكون المقامة كما تصطاده في حوانيت اللاهين حين
اللهو قد توسط مداماه ومعه قينة تغنيهم وأن عشيرته لذلك قد تحامته ولكن
ذلك التحامى لم يطعن في بقاءه معروفا للجميع قال

(١) الالمى الضارب الى السواد والمنور الاقحوان والدعص الكثيب
(٢) أية الشمس شعاعها والكدم العض والاسفاف الخلط (٣) اتخذ
التشقى.

فان تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وان تلمسنى فى الحوانيت تصطد
ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح اليه ا بين برد ومجسد (١)
رحيب-قط-اب الجيب-منه- رفيقة بحس الندامى بضمة المتجرد (٢)
اذا نحن قلنا أسمعيننا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد (٣)
اذا رجعت فى صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردى (٤)
ومازال تشرابى الخمر ولذنى ويعى وإتفاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد (٥)
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ولا أهل هذالك الطراف الممدد (٦)
فهذه نفسية طرفة اللاهى حللها لنا فى هذه الأبيات وأخذ بعدها يلوم من
يزجره أن يحضر الوغى ويشهد للذات مادام لا يستطيع عنه دفع المنون ويذكر
أن العيش لثلاث الخمر والنجدة والنساء ومن حرمها كان بخيلا لا يلبث أن
يترك ماله ويموت فلا يكون لقبره فضل على قبور الكرماء وهذا بعض ما قال
أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد (٧)
أرى الموت يعتام الكبار ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى كالأطول المرخى وثنياء فى اليد (٨)
هتى مايشأ يوما يقده لحتفه ومن يك فى حبل المثية ينقد

(١) الجسد ما يلى الجسد أو ما صبع بالجساد وهو الزعفران (٢) أقطاب
الجيب مخرج الرأس منه (٣) المطروقة الضعيفة (٤) الأظآر ذوات الولد والربع
ابن الربيع (٥) المعبد المطلى بالقطران (٦) الغبراء الارض وبنوها الفقراء
والطراف البيت (٧) النحام السعالسمى به البخيل لانه يكثر سعاله اذا طلب منه
شيء (٨) الطول الحبل الذى يطال للدابة لترعى

ومن هنا خرج الى مالك ابن عمه يعاتبه على لومه اياه في طلبه حمولة أخيه
معبد واستعانت به في الطلب مع أنه فعل ذلك تقريبا للقربى مع قدرته على مقابلة

الجميل بجميل وفي هذا فاضت عاطفته بما ترك التعبير له حيث يقول

فلو كان مولاي امرأ هو غيره لفرج كربى أو لا تطرنى غدى
ولكن مولاي امرؤ هو خانقى على الشكر والتسأل أو انا مفتدى
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
فذرني وخلقي إننى لك شاكر ولو حل بيقى نائيا عند ضرغد (١)
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وزارنى بنون كرام سادة لمسود
على أنه لم يلبث أن سرى عن نفسه فاخرا بقوته وشجاعته وفتكه واغارته
بأبيات يقول في أوها

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد (٢)
وفي آخرها على لسان من يقصد ابله فيغتصب منها ما شاء فيدعه خوفا منه وفرقا
وقال ذروه انما نفعها له والا تكفوا قاصى البرك يزد (٣)
ذاك نحره بنفسه ومن كان هذا شأنه كان جديرا اذا مات أن يبكى ولذلك
ساق القول بعد الى ابنة عمه طالبا منها أن تنعاه بما هو أهله قال

فان مت فانهينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرى ليس همه كهمنى ولا يغنى غنائى ومشهدى
ثم أخذ يجمع لها صفاته الى أن اختتم المعلقة بهذه الايات الثلاثة الخالدة

(١) ضرغد اسم جبل ناء (٢) الضرب الخفيف الجسم والخشاش الدخال (٣) البرك
الابل .

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد
 ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود
 ويأتيك بالاخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له كف موعدا
 هذه معلقة طرفة وهى على ما رأيت منها شديدة الاسر قوية المعنى جيدة
 التشبيه ذات أمثال سائرة وحكم بالغة ولذلك اعتبرت أجود المعلقات ولو كان
 لطرفة من الشعر ما يقارب فى الكثرة شعر الاربعة المقدمين امرىء القيس وزهير
 والنابغة والاعشى لوضع معهم كما قال أبو عبيدة أو لفضلهم جميعا كما قال
 الكثيرون من الشعراء والرواة والادباء

٣ - معلقة زهير

لم يسبق زهير معلقته كما ساق زميلاه السابقان معلقتهما لغير ما سبب ظاهر
 سوى حفزة الشعر القاهرة تعبيرا عما فى النفس من ضروب الاحاسيس
 والوجدانات بل قالها فى غرض معين هو مدح هرم بن سنان والحرث بن
 عوف على تداركهما عسا وذيان بالصلح بينهما فى حرب داحس والغبراء
 وتحملهما فى ذلك على غير جناية منهم الكثير من الديات وتلك بد تقاس عظمتها
 بما كان لتلك الحرب من شيوع ذكر وطول زمان واكمنه لم يجرد هاهنا ابتدائها
 من ذكر الدمن والاطلال ووصف الطعائن اذا تحملن للاسفار فقد وقف على
 الدمن وأطال هذا الوصف فأجاد ووقع له من خيار التشبيهات تشبيهان
 حيث يقول

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادى الرس كاليد للقم
 فلما وردن الماء زرقا جسمه وضعن عصى الحاضر المتخيم
 كأن فتات العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم (١)

ثم تركهم مقيمين الى ما أراد من تسجيل يد هرم وعوف فقال

سعى ساعيا غيظ بنى مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم (٢)
تداركتما عيسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٣)
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظمين فى عليا معد هديما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
وبعد أن أفاض فيما احتمله هذان السيدان من مفارم أصبحت مغام لذوى

الديات انتقل الى المتحالفين يسألهم الاخلاص للصالح ويحذرهم مغبة الحرب
واصفا سوء عواقبها وهو خير ما قيل فيها قال

ألا أبلغ الاحلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما بكم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر يوم الحساب أو يجعل فينقم
وما الحرب الا ما علمتم وذقم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضرى اذا ضريرتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحى بثقالها وتلمح كشافا ثم تنتج فتنتم (٤)

(١) تبزل اشتدوا اختلط (٢) السحيل المقتول على قوة واحدة والمبرم المقتول على
اثنين (٣) منشم امرأة تباع عطر التحالف أو رجل يبيع حنوط الميت (٤) ثفال
الرحى ما يبسط تحتها ليقع عليه الطحين وتلفح كشافا تحمل مرتين فى
السنة والاتنام ولادة توأمين

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحر عاد ثم ترضع فتفطم (١)

فتغلل لكم مالا تغل لا أهلها قري بالعراق من قفيزودرم (٢)

ولم يفته في هذا المقام أن يعيب على حصين بن ضمضم تخلفه عن الصلاح على

نية الاخذ بثأر أخيه وأن يحمد لمن ثار فيهم على بعد الوتر منهم قبولهم الدية

احتراما للصلح دون أن يجاروه القتال كما لم يفته أن يذكر قصد حصين على

قوته وشدة بطشه وذلك قوله

لعمري لنعم الحى جر عليهم بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم

وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

وقال سأقضى حاجتى ثم أتى عدوى بألف من ورأى ملجم

فشدوا لم يفزع بيوتا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم (٣)

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

جرى متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا والا يبد بالظلم يظلم

وكان زهيرا صفت نفسه وقد عاج هذا كله فأمدته روحانيته بتلك الحكم الفذة

الكثيرة التى ختم بها معلقته فكانت فى بابها أبلغ دلائل على أن الفطرة إذا

صفت أدركت ما يقف العقل أمامه حائرا لا يدري كيف كان لها إليه السبيل

وهاهى ذى

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وأعلم علم اليوم والامس قبله واكننى عن علم ما فى غدعم

(١) المراد بأحر عاد أحر ثمود لأنه العاقر (٢) يقصد بقوله من قفيز

ودرم أن الدراهم تكال بالقفيز (٣) أم قشعم المنية والقشعم النسب يأتي

وراءها ليأكل من القتل

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وان يرق أسباب السماء بسـلم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يعص أطراف الزجاج فانه يطبع العوالي ركبت كل لهزم (١)
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظـلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغفر عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قابه الى مطمئن البر لا يتجمجم (٢)
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن يغترب بحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
وكأن تري من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
اسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

١ حل - ٤ - معلقة لبئد

جاءت معلقة لبئد قطعة صادقة في تصوير البادية أصدق تصوير من النواحي
التي قصد إليها فانه بدأها بذكر الدمن في عنائها وكيف تحولت الى مراعى
عشب ونبات ومراتع ظباء ونعام واكتنفا مع هذا قد جلت أطلالها السيول
فوقف يسألها وبقيت هي صما خوالد لا تبين فجاوزها الى تذكر أهلها الراحلين
(١) الزجاج جمع زج وهي الحديدة في أسفل الرمح واللهزم السنان في عاليته

(٢) التجمجم الترحح

وأخذ يصف الظعن ويتذكر نوار ولاكنه عاد يقول لنفسه وما تتذكر من
نوار وقد نأت الى ديار لأمل مع بعدها في لئاء

ومن جميل التشبيه في بعض ما تقدم قوله :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها (١)

أو رجع واشمة أسف نؤورها كنفها تعرض فوقهن وشامها (٢)

وقد أخذ على نوار اغالها في رحلتها وأعلن عزمه على قطع لبانتها بأبياته التي
يقول فيها

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها

واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق اذا ظلت وزاغ قوامها (٣)

بطليح أسفار تركن بقية منها فأحرق صلبها وسنامها (٤)

ثم اندفع يصف النافذة ويظيل ولكنه حاد عن جعل الوصف في جسمها فجعله
في سيرها وأخذ يشبهها في سرعتها نارة بالسحابة الجهام تطردها ريح الجنوب
وأخرى بأتان ملمع حملت من أحقب غيور وامتنعت عليه فرا به أمرها
وعلا بها حذب الآكام حتى اذا سلبها الشتاء بعيدين عن الماء وهبت ريح
الصيف اشتد بهما الظمأ ففزعوا الى الورود وانحدرا الى النهر انحدارا كان له
غبار كدخان نار أوقدت اليابس والرطب من النبات . وثالثة ببقرة وحشية
أكل السبع فريرها فأخذت تبحث عنه سبعا كاملة الايام حتى اذا يئست وجف

(١) جمع زبور وهو الكتاب والمتون السطور (٢) النور النقش المتخذ من

دخان السراج والنار والنقش المداد (٣) الكنف بكسر الكاف جمع كفة بالكسر

وهى الدارة وكل مستدير وبالضم جمع كفة مضمومة لكل مستطيل وأسف

ذبر وتعرض ظهر (٤) ظلت عرجت يقصد الصحبة والطليح المعني وأحرق ضمير

ضرعها أحست صوت رمة أرسلوا خلفها الكلاب فكان لها عدو النجاة شديد
فذلك حيث يتول

- واذا تغالى لحمها وتحسرت وتقطت بعد الكلال خدامها (١)
فلها هباب فى الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها (٢)
أو ملمع حملت لا تحب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها (٣)
يعلو بها حذب الآكام مسجج قد رابه عصيانها ووحامها (٤)

إلى آخر ما قال فى الائنان ثم أعقبه بقوله فى البقرة

- أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوارقوامها (٥)
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها (٦)
علمت تردد فى نهاء صعائد سبعا نؤاما كاملا أيامها (٧)
حتى اذا يئست وأسحق خاق لم يبيله ارضاعها وفطامها (٨)
وتوجست رز الانيس فراعها عن ظهر غيب والانيس سقامها (٩)
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها (١٠)

وبعد هذه الاطالة فى وصف الناقة وسيرها أخذ يفتخر على النوار بأنه قضاء

- (١) تغالى ارتفع والخدام جمع خدمة وهى السير (٢) الهباب النشاط
والصهباء السحابة الحمراء (٣) الملمع الائنان المشرقة أطبأوها بالبن ووسقت
حملت والاحقب العير فى وركيه بياض ولاحه غيره (٤) المسجج المخدش من
العض (٥) المسبوعة التى أكل السبع ولدها الذى خذلته بتركه واتباع مقدم
الصوار وهو القطيع (٦) الفرير الولد ولم يرم لم يبرح والبغام الصوت (٧) علمت
انهمكت وصعائد موضع ونهاؤه غدرانه واحدها نهى (٨) الخاق الضرع
وأسحق ذهب لبنه بجفافه (٩) الرز الصوت (١٠) مولى المخافة موضعها

لبانات وصال قطاع يعاف ما لا يرضى من الديار وأنه سمار ليال غلام سباء
وزاع لغدوات الشمال وأنه يحمى الحى فيرتقى بفرسه المرتفعات في منباج الصباح
فاذا ما أمسى أسهل وفرسه لا يزال منتصباً للحراسة في البيات وأنه مع هذا
حلال مشكلات في المجامع والمقامات نحار بالقداح لجزر الايسار يدعو بهن
لذوى الحاجات والضيفان ممن يأوون الى أطنا به فيجدون الخصب والثراء وهذا
بعض ما قال

فبتلك اذ رقص اللوامع بالضحى	واجتاب أردية السراب أكامها (١)
أقضى اللبانة لأفرط ريبة	أو أن يلوم بحاجة لوامها
أو لم تكن تدرى نوار بأننى	وصال عقد حبايل جذامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها	أو يعتاق بعض النفوس حمامها
أغلى السباء بكل أدكن عاتق	أوجونة قدحت وفض ختامها (٢)
وغداة ربح قد وزعت وقرة	قد أصبحت بيد الشمال زمامها (٣)
ولقد حميت الحى تحمل شكى	فرط وشاحى إذا غدوت لجامها (٤)
وكثيرة غرباؤها مجهولة	ترجى نوافلها ويخشى ذامها (٥)
أنكرت باطلها وبؤت بحقها	عندى ولم يفخر على كرامها
وجزور أيسار دعوت لحتفها	بمغالق متشابه أجسامها (٦)

(١) يقصد لوامع السراب واجتاب الآكام أرديته لبسها أى احتدمت
الهواجر (٢) السباء شراء الخمر والادكن العاتق وصفان للزق والجونة الخاوية
السوداء وقدحت ملئت منها القداح (٣) وزعت دفعت بالنجر (٤) الفرط الفرس
المتقدمة السريعة (٥) يقصد الدار تقوم فيها المقامة (٦) الايسار أصحاب الميسر
واحد هم يسر والمغالق السهام واحد لها مغلاق

أدعوهن لعافر أو مطفل بذات لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأما هبطا تبالة مخصبا أهضامها
ذاك نخره بنفسه وقد أعقبه فخره بقومه ينسبهم الى سيادة المحافل وحسن
سياسة العشيرة وأن تلك سجايا فيهم يجدر بالحاسد ألا يطمع فيها لانها حياء
لهم من المليك لما جبلوا عليه من معالى الامور قال

إنا اذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها (١)

ومقسم يعطى العشيرة حقها ومغذ مر لحقوقها هضامها (٢)

فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها

من معشر سنت لهم آبؤهم ولاكل قوم سنة وامامها

لا يطبعون ولا يبور فعالمهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها

ثم التفت يخاطب الطامع في مثل مكاتهم بقوله

فاقنع بما قسم المليك فانما قسم الخلائق بيننا علامها

وإذا الامانة قسمت في معشر أوفى بأوفر حظنا قسامها

فبني لنا بيتا رفيعا سمكه فسما اليه كهلها وغلالمها

إلى أن ختم المعلقة بأبيات أخر يحمل فيها ما عرفوا به من مكارم الاخلاق

هـ — معلقة عمرو بن كلثوم

خاف عمرو رجال المعلقات فلم يبدأ معلقته بذكر الدهن والديار وتعرف

الآثار والاطلال انما بدأها بوصف الخمر وتأثيرها والدعوة الى الاستصباح

بها وانتهاها ولاسكنه لم ينس أن يستوقف الطعينة قبل التفرق لتخبره هل أحدثت

(١) لزاز العظيمة قرينها (٢) المغذ مر الغضوب لاجل حقوق العشيرة

الهضام لحقوق نفسه

صرما وقطعا ويخبرها بما له أيام الكريمة من بلاء يقر العيون ثم أخذ يصف
وجوه محاسنها ووجده يرافقها في أبيات طويلة أنهي بها تشبيب قصيدته
قال في مبدئها

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا (١)

مشعشة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)

وقال

قفي قبل التفرق يا طعينا نخبرك اليقين وتخبرنا

قفي نسألك هل أحدثت صرما لو شك البين أم خنت الامينا

وقال

تريك اذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الـ كاشحينا

ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا (٣)

إلى آخر ما وصف ثم قال

فما وجدت كوجدى أم سقب أضلته فرجعت الحنينا (٤)

ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة الا جنينا

وبعدئذ خرج الى الغرض الذى من أجله قرض المعنقة وهو التماخر بقتله

عمرو بن هند في حادث يذكر له الرواة قصصا وحكايات ولا يعدو محددى أن

يكون هذا القتل وقع باتفاق بينه وبين البيت المالك لما كان من طول الحكم لعمرو

(١) الاندرون قري بالسام (٢) المشعشة الممزوجة والحص نبت أحمر

النور (٣) العيطل الطويلة العنق من النوق والادمة فى الابل البياض و لهذا

الهجنة ولم تقرأ لم تحمل (٤) السقب ولد، الناة قبل فضاله

وشدة عسفه بأدله ولذلك أسدلوا الستار عليه فلم يشنوا حربا ولم يطلبوا بثأر
وانما اختير ابن كلثوم لأنه رئيس تغاب وكثيرا مغاضبها ابن هند وظاهر
بكرا عليها كما حدث بعد سماعه معلقة ابن حلزة دلى ما سيأتى فى بعض ما كان
بينهما من خلاف على أنى اذا لم أجزم بهذا الاتفاق فلا أقل من أن أقول لقد
وقع القتل على قلوب المناذرة بردا وسلاما وبخاصة صاحب التاج من بعده وهو
أخوه الزعمان هذا وقتئذ بدأ ابن كلثوم نغره بمخاطبة الملك القليل سيخريه وتم كما
خطابا يذكره فيه بأيام لهم غر طوال وبقدمهم منذ القدم فى الحروب وعركهم
من يتعرض لهم وحمايتهم من يستجير بهم وأهمهم لم يعادلوهم بغير ما عادلوا به الملوك
من عصيان وخروج منذ أيام خزازى الى حيث قتلوه وكان ذلك منه فى أكثر
من خمسين بيتا هذا بعضها

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيننا

بأننا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

الى أن قال

متى ننقل الى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحيننا

يكون ثغالها شرقى نجد ولهوها قضاة أجمعينا (١)

والى أن قال

ألا لا يعلم الافوام أنا تضعضعنا وأنا قدونينا

ألا لا يجهل أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(١) ثغال الرحى ما يسط تحتها ولهوتها الغبضة من الحب تلقى فيها

بأى مشيئة عمرو بن هند تكون لقييلكم فيها قطينا (١)

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

تهمدنا وتوعدنا رويدا متى كنا لامك مقتويننا (٢)

فان قناتنا ياعمر وأعيت على الاعداء قبلك أن تلينا

إذا عض الثفاف بها اشمازت وولته عشوزنة زبونا (٣)

عشوزنة إذا اقلبت أرت تشج قنما انثقف والجيينا

ثم أخذ يفخر برجالهم الاقدمين ويعدد ما آثرهم وأيامهم مشركا معهم بنى عمهم

بكر والكنه لم يرض أن يكونوا مثلهم في هذه المفاخر قال

ونحن غداة أوقد في خزازي رقدنا فوق رقد الرافديننا (٤)

وكنا الايمنين اذا التقينا وكان الايسرين بنو أينا

فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفديننا

ومن هنا أخذ يفخر على بكر ويذكرهم بما كان لهم عليهم من غلاب وقد أجاد

حيث يعالج ذلك وصف الدروع والنساء وراء الخيل يوم الروع قال

علينا كل سابعة دلاص ترى فوق النطاق لها غضونا (٥)

إذا وضعت عن الابطال يوما رأيت لها جلود القوم جونا

كأن غضونهم متون غدر تصفقهما الرياح اذا جرينا

(١) القطين الخدم (٢) المقتوون جمع مقتوى بطرح ياء النسبة نسبة الى

المقتى وهو المصدر الميمى لنتا يقتو اذا خدم الملوك (٣) العشوزنة الصلبة الشديدة

والزبون الدفوع (٤) خزازى جبل ويقصد يوما كان عنده بين نزار ويمن

(٥) السابعة الدرع التامة والدلاص البراقة والغضون التشجئات جمع غضن

٣٤

وتحملنا غداة الروع جرد عرفن لنا نقائذ وافتائنا (١)

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أوتنونا

أخذن على بعولتهن عهدا إذا لاقوا كتاب معلمينا

ليستلبن أفراسا وييضا وأسرى في الحديد مقرنينا

إذا مارحن يمشين الهوينى كما اضطربت متون الشاربينا

يقتن جيادنا ويقان لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

إذا لم نحملهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيننا

ذاك فخره وقد رأى أن يدعمه بأنه معروف لقبائل معد فكلمها تعترف لهم يوم

الفخار بكرمهم وفتكهم وعزتهم وإبائهم ومن ثم عاد الى مثل ما بدأ به مع ابن هند

فكان ختام المعلقة قال

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا

بأننا المظمعون إذا قدرنا وأنا المهمل-كون إذا ابتائنا

وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

وأنا التاركون إذا سخطنا وأنا الآخذون إذا رضينا

وأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا العارءون إذا عصينا (٢)

ونشرب ان وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ثم قال

إذا ما الملك سام الناس خسفا أئينا أن نقر الذل فينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قدرينا

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما نخر له الجبابر ساجديننا

(١) النقائذ ما أنقذت من أيدي الأعداء وانتلاؤها لإلادها (٢) العارءون

ذوو العرام وهو الحدة

٦ — معلقة عنتره

جاءت معلقة عنتره لغرض خاص كما جاءت معلقات امرئ القيس

وطرفة وليبد وقد بدأها بما بدعوا به فوقف على الاطلاع وخاطب الديار كما

هى سنة الشعراء ثم أبان أنه يخاطب دار عبلة وأخذ يستوحيها الجواب ويصف

صاحبته قال

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى (١)

دار لا نسة غضيض طرفها طوع العناق لذينة المتبسم

وعاد ثانية يستوقف الناقة على طال عبلة ويحييه ويستبعد الديار التي حلت بها

ويعجب كيف يكون المزار ثم خلاص من هذا الى وصف ما لعبلة من حسن ثغر

وطيب مقبل فأجاد قال

إذ تستبيك بذى غروب واضح عذب مقبله لذيذ المطعم (٢)

وكان فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها اليك من القم (٣)

أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم (٤)

جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم

سحا وتسكبا فكل عشية يجرى عليها الماء لم يتصرم

وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كنفل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراع قدح المكب على الزناد الا جذم (٥)

وبعد هذا التشبيه الطويل عاد الى عبلة يذكر تنعمها على الوثر من الفراش

(١) الجواء موضع بهينة (٢) الغروب جمع غرب وهو الحد (٣) فارة المسك

آنيته لانه يفور منها والتسيمة الحسنة التماسيم (٤) الانف التي لم ترع وتضمن

سقى (٥) هزجا مصوتا والاجذم الناقص اليد

بينما هو على سرج فرسه وأخذ يتمنى أن تبلغه أياها شذنية غير ولود وانساق
يصف هذه الناقة ويشبهها بالظلم تأوى له قلمص النعام كأنه العبد الاصلم
ذوالفرو الطويل وما أبين قوله إذ يذكر اندفاعها في سيرها

وكانما تنأى بجانب دفها ال وحشى من هزج العشى مؤوم (١)
هر جنيب كلما عرضت له غضبي انتقاها باليدين وبالقلم
وما انتهى من صفة الناقة حتى أوغل فيما هو قصده في معاقته من ذكر فروسيته
وبطولته وبدأه بقوله لعبلة لا تغد في دوني القناع فان يأخذ الفارس
المستأنم مثلى جدير أن يموزك وينال منك الثناء بما هو أهله فاني سمح المخالطة
مر المذاقة شراب مدام لا يمنع الصحو كرمي ولا تنال النشوة عرضى
فاذا شربت فاني مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمالي وتكرمي
وهذا معنى لم يحار فيه وقد أخذ بعده يعد مواقف بطولته فيقول كم من حليل
غانية ولا يحل لها الا البطل قد جندلته ومدجج كره الكماة نزاله قد طعنته وحامى
حقيقة معلم بهندى قد علوته ولم ينس في هذه المواقف الثلاثة من حماسه أن
يخلطها بنسيبه في عبلة كما هو دأبه . قال في أولها

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
ينخبرك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ويقول في نهايتها

ياشاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

(١) الدف الجنب والوحشى الايمن لانه لا يركب منه. والمؤوم القبيح الرأس

فبعثت جاريتي فقات لها اذهبي وتجسسي أخبارها لي واعلمي
قلت رأيت من الاعادي غرة والشاة ممكنة لمن هو مرتمي
وكأنما التفتت بجيد جدابة رشاً من الغزلان حر أرثم (١)
وعاد من هذا الى ذكر موافقه ناعيا على من لا يشكر نعمته جحود فضله
وذاكرا أنه حريص على وصاة عمه بالثبات في أخرج المضايق فكان منه في الكلام

عن فربه هنا ابداع ليس بعده مثال قال

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذاكرون كررت غير مذموم (٢)
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الادم (٣)
مازالت أرميهم بشجرة نخره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم (٤)
لو كان يدري ما المحادرة اشتكى ولا كان لو علم الكلام مكلمي
وزاد ذلك منه نبلا وكرما أن جعل في نداء الفوارس له بالاقدام في الشدائد

ما يشفى نفسه ويبريء سقمه قال

ولقد شفى النفس وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدمي
ثم ختم المعلقة بخشيته الموت قبل أن ينال من ابني ضمضم لتوعدهما اياه بعد قتله
أبأها قال

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم (٥)

الشامي عرضي ولم أشتهمها والناذرين اذا لم آلقهما دمي

إن يفعلوا فلقد تركت أبأها جزر السباع وكل نسرقشعم (٦)

(١) الجدابة ولد الظبية والرشا القوى والارثم الذي في شفته العليا وأنفه
بياض (٢) يتذاكرون يتحاضون على القتال (٣) أشطان البئر حباله واللبان الصدر
(٤) ازور مال وتحمحم الفرس صهيله بحنين (٥) هما حصين وهرم (٦) القشعم المسن

٧ — معلقة الحارث ابن خلزة

قيمت هذه المعلقة لغرض خاص هو استمالة عمرو بن هند الى بكر والحارث
منها في مقاضاة كانت عنده بينها وبين تغلب قوم عمرو بن كلثوم قاتل ابن هند
كما سبق وقد احتذى حذو الشعراء في بدئها فأبدى تحرقه على بين أسماء وأخذ
يذكر عهدهما السالف ومكانها النائي فيبكي وما يحير البكاء قال

آذنتنا بينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

بعد عهد لنا ببرقة شما ء فأدنى ديارها الخلصاء (١)

لا أرى من عهدت فيها فأبكي لا يوم دلها وما يحير البكاء (٢)

وأردف ذلك بذكر النافقة يستعين بها على الهم ويصفها وقد بلغ في ذلك ما أراد
في ايجاز وحسبك قوله

غير أنى قد أستعين على الهم م اذا خف بالثوى النجاء (٣)

بزفوف كأنها هقلة أم م رئال دوية سقفاء (٤)

آنست نبأة وأفزعها القن ناص عصرا وقد دنا الامساء

فترى خلفها من الرجوع والو ء مع منينا كأنه أهباء (٥)

ومن هنا انتقل الى موضوع المعلقة فبدأ يصف ظلم بنى عمهم إياهم وتبئيتهم لهم
الشر وقد أجاد في وصف التهيؤ للحرب ماشاءت له الاجادة حيث يقول

(١) العهد اللقاء (٢) الدله ذهاب العقل وما يحير ما يرجع (٣) الهم ما يهيم به

(٤) الزفوف السريعة والهقلة النعابة والدوية نسبة الى الدو وهو الصحراء

والسقفاء الطويلة مع انحناء (٥) المنين الغبار الرقيق والاهباء جمع هباء وهو ما تطاير

وأنا من الحوادث والا : باء خطب نعى به ونساء
 أن اخواننا الاراقم يغلو ن علينا في قيلهم إخفاء (١)
 يخلطون البرى منا بذى الذى : ب ولا ينفع الخلى الخلاء
 زعموا أن كل من ضرب الع : ير موال لنا وأنا الولاء (٢)
 أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
 من مناد ومن مجيب ومن تص : هال خيل خلال ذاك رغاء
 ثم أخذ يخاطب من وشى بهم الى عمرو بن هند بأنهم واثقون من عدل الملك
 على أنهم غير خائنين وقديما وشى بهم فكانت ما نعتهم حصونهم وهذا إذ يقول
 أيها الناطق المرقش عنا : عند عمرو وهل لذلك بقاء (٣)
 ملك مقسط وأفضل من : شى ومن دون مالدیه الثناء (٤)
 لا نخلنا على غراتك إنا : قبل ما قد وشى بنا الاعداء (٥)
 فبقينا على الشناعة : تم مينا حصون وعزة قعساء (٦)
 وأتبع هذا بأنهم مع قدرتهم ذوو أهبة لقبول أية خطة في الصلح تراد وأنهم
 أكفاء لمقابلة ما يطلب منهم بمثله وأخذ يذكر ماضيهم تأييداً لما يقول قال
أيما خطة أردتم فأدو ها اليها تمشي بها الاملاء (٧)
 وبعد أن بين أنواع الخطط في آيات له أعقبها بقوله
هل علمتم أيام ينتهب الناس غوارا لكل حى عواء (٨)

(١) الاراقم لقب لبطون من تغلب والاحفاء الاحاح (٢) العبره السيد والمراد
 كليب وضربه الرضا بقتله وقوله رأنا الولاء أى أصحاب الولاء (٣) المرقش
 المريب المشكك (٤) المقسط العادل والفاسط الجائر (٥) الغرة الاغراء
 (٦) تنمينا ترفعنا (٧) الاملاء جماعات الاشراف جمع ملاء (٨) الغوار المغاورة

إذ ركبنا الجمال من سعف البحر ربن سيرا حتى نهاها الحساء
ثم ملنا على تميم فاحرم لنا وفيما بنات مر إمء (١)
لا يقيم العزى بالبلد السهل ولا ينفع الذليل النجاء
ثم عاد الى المبلغ عنهم ثانية يذكره بأن لهم على عمرو بن هند ثلاث آيات
ردعم قيس بن معد يكرب الحميري عنه وقد غزا الحيرة في معد كلها وكذا حجير بن
أم قطام وقد غزاها أيضا في فارسية خضراء . وآية فكهم غل امرئ القيس
اللاخمي من الغساسنة وإقادتهم بأبيه المنذر إذ قتلوه من ربهم والثالثة أنه ابن
اختهم فأمه منهم وهم قد ولدوه وفي ذلك يقول

أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو وهل لذك انتهاء
من لنا عنده من الخير آيات ثلاث في كلهن القضاء
آية شارق الشقيقة إذ جاءوا جميعا لكل حى لواء (٢)
حول قيس مستلثمين بكبش قرظى كأنه عبلاء (٣)
فرددناهم بطعن كما ينحرج من خرتة المزدالماء (٤)
ثم حجرا أعنى ابن أم قطام وله فارسية خضراء (٥)
وفككنا غل امرئ القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء (٦)

(١) أحرمنادخلنا في الأشهر الحرم (٢) الشقيقة أرض صلبة بين رملتين
وشارق مضى وهى من إضافة الصفة الى الموصوف والمراد اسم مكان كانت
به الموقعة (٣) يريد قيس بن معد يكرب الملك الحميرى والكبش السيد والقرظى
كنية عن أنه شديد الوطأة لان القرظ شجر يدبغ الاديم والعبلاء الهضبة
البيضاء (٤) المزد الزقاق وخرتها ثقبها (٥) هو والد امرئ القيس (٦) يقصد
أحد اللخمين لا امرأ القيس بن حجر

وأقدناه رب غسان بالمة نذر كرها إذ لا تكال الدماء (١)
 وولدنا عمرو بن أم أياس من قريب لما أنانا الحباء (٢)
 ثم عاد الى تغلب يطلب اليهم أن يتركوا التكبر والتعالي ويذكروا حلف ذي المجاز
 وما قدم فيه من عهد و كفله من كفلاء حذر الجور والتعدي مثل ما يذكرون هم قال
 فاتركوا الطيخ والتعاشي وإما تتعاشوا ففي التعاشي الداء (٣)
 واذكروا حلف ذي المجاز وما قد دم فيه العهود والكفلاء (٤)
 حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهارق الا هواء (٥)
 واعلموا أننا وإياكم في ما اشرطنا يوم اختلفنا سواء
 وبعدئذ أخذ يعيرهم بجنائيات غيرهم عليهم وأنه لا يحمل بهم أن يحملوهم جرمهم
 فيقول

أعلمنا جناح كندة أن يغد-----نم غازيهم ومنا الجزاء
 وهكذا أكثر التعداد حتى ختم المملقة بتغلبهم عليهم يوم الحيارين كيلا
 يظنوا فيهم ضعفا أو أنهم ليسوا كهؤلاء مستشهدا على ذلك اليوم بالرب وهو
 الملك حيث يقول

وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء (٦)

(١) رب غسان ما كها (٢) الحباء المهر (٣) الطيخ التكبر والتعاشي التعامى
 (٤) ذو المجاز موضع أصلح فيه عمرو بن هند بين بكر وتغلب (٥) جمع مهرق
 وهو خرقة تطلى وتصفق ليكتب عليها (٦) كان لبكر على تغلب ويقصد بالرب
 عمرو بن هند

مميزات الكلام الجاهلي

إن لكلام الجاهليين سمات عامة تتناول النثر والشعر معا وأخرى خاصة بكل منهما

أولا — المميزات العامة

فالعامية يراها المطلع عليه في عباراته ومعانيه والغرض العام الذي يرمى اليه وهما هي ذى

١ — في العبارات

أول ما يلاحظ على عباراته مخلوها من اللحن لتتمكن السليقة فيهم وقلة اختلاطهم بغيرهم وليس معنى هذا أنه لم يك من أحدهم خروج على المصطلح العام بل معناه أن ذلك الخروج كان قليلا وعن غير الصميم وهو ما سمي بالشاذ والمسموع بخلاف الخروج في العصور الإسلامية بهد فقد كثرت عارض الاسس ولذلك لم يحجم واضعو أصول العربية عن تسميته لحنا وخطأ مفرقين في التسميه بين النوعين

ثانيا - خلوها من الدخيل وسببه سبب عدم اللحن غير أن اختلاطهم بمن جاورهم من الامم بعض الاختلاط بحكم الجوار جعلهم يأخذون من لغاتها وبخاصة الفارسية كلمات أدخلوها كلامهم ولكنهم أحدثوا فيها صفلا فربها من لغتهم وأعطاه جرسها فأصبحت كأن لم تك غريبة عنها ولذلك لم يطلق عليها اسم المعرب كما اطلق على ما اقتبس بعد

ثالثا - اجتازها فقد كانوا يرون البلاغة في اليجاز . وإذا كانوا فرسانها الاوائل فقد قدروا على تحقيق ما رأوا دون اخلال بالمعاني ولا بما قصدوا

اليه من أغراض ولهذا كانوا يفضلون من الجمل القصير واذا خرجوا عنه فالى المتوسط لا الطويل

رابعا — ارساها على ما تقتضى البلاغة النظرية دون تكلف فيها ولا مراعاة لما أتت به الصناعات اللفظية بعد فقلا يرى لهم تأنيق في انتقاء ألفاظ متناسبة الوزن متشابهة النغم أو صوغ عبارات ذات جناس أو طباق أو غيرها من محسنات البديع الا ما أتى عفوا غير مقصود

خامسا — اشتمالها على كثير من الالفاظ المترادفة على القول بأن هناك ترادفا حقيقيا جاء من اختلاط القبائل وتعرف بعضها لغات بعض أما على أنه لاترادف في الواقع وأن لكل مرادف خصوصية كانت تعرفها العرب له على مرادفه وأنا نسبنا ذلك نحن فلا ترادف الا من حيث الظاهر فقط وهى على كلتا الحالتين لا تخرج عن أن تسمى خاصة ومميزا

ب — فى المعاني

كانت المعاني فى الجاهلية قاصرة على الحقيقة واذا جاوزتها الى غيرها فالى المجاز ذى العلافة البارزة التى لم يلبث معها طويلا حتى صار حقيقة فى كثير من الالفاظ . أو إلى الكناية قليلة الوسائط مع قرب المثال أو كثيرتها مع شدة اللزوم اللهم الا ما كان رمزا مقصودا وكثيرا ما كانوا يعمدون فى الكناية الى التعريض اتقاء التصريح بما يستهجن أو غيره لسبب ما فلا يقع فى ذلك فحش ولا خفاء . وكانوا اذا تخيلوا لا يخرجون فى ذلك عن الخيال المنزع الصورة من الحس الظاهر والواقع فى دائرة الامكان العادى أو العلى الا ما قصدوا فيه الى هذا الخروج كخيالهم فى موارد الامثال الفرضية وبعض الاوابد

ج - فى الغرض العام

أما الغرض العام الذى يرمى اليه فكان يدور حول ما تقتضيه البداوة

والفطرة الخاليتان من تكلف أهل الخضر وتأنيقهم ويكاد ذلك ينحصر في وصف المعيشة البدوية ومرافقها من حمل وترحال واستدار غيث وانتجاع كلاء واستنبات نبت ونتيج حيوان وفي إثارة المنازعات والمشاحنات وما تجر إليه من حض على ادراك ثأر وقول في نعي ميت وتفاخر بمال وولد وتباه بشجاعة وانتصار وتشرف بكرم محمّد وحوز فضيلة ثم في وصف ما يشاهد بجزيرتهم والاخبار عما يقع فيها بما يناسب بيئتهم ويتفق وطبعهم

ثانياً — المميزات الخاصة

١ — في النثر

يمتاز النثر الجاهلي فوق ما تقدم في المميزات العامة بما يأتي
أولاً مجيء السجع فيما أثر منه أكثر من الازدواج والازدواج أكثر من الترسل وإنما قلنا فيما أثر لانه طبيعة صدور الكلام تأتي إلا أن يكون الواقع العكس وإنما علق المسجوع بالاذهان أكثر من أخويه كما تقدم لسهولة حفظه ولانه كان المقصود في مهام الأمور على أنه قد كانت هناك طائفة لا تتكلم إلا المسجوع هي طائفة السكينة والعرافين لما للسجع من جمال الوقع على الأسماع وشدة التأثير في القلوب وهذا ما يريدون وقد انقضت هذه الطائفة بالاسلام وكان أكثر الكلام ترسلاً ووليه الازدواج ثم السجع فكانت الحال معاكسة لما أثر أو موافقة لما كان في الحق هو الواقع

ثانياً — كثرة أمثاله بنوعها ومجىء حكمه كثيرة وعلى مقتضى الفطرة أيضاً فإن الأمثال تكاد تكون قاصرة على العهد الجاهلي وما جاء بعد لا يعدو حد النملة وأغلبه على صيغة أفعل . والحكم لا تكاد تحوى تعمقاً في فكرة

أو اغراقا في فلسفة لما كانت عليه العرب من حال بدواة لا تعمق فيها لعلم ولا زخرف لحضارة وإنما ساعدها على الاكثار من هذين النوعين رجحان عقولها وسلامة فطرها مع تملكها زمام الفصاحة وافتدارها على الایجاز

ثالثا — تفرد به بالمنافرة على معناها الجاهلى فما عرفت فى الاسلام منافرات فرضت فيها الجعول وهرع من أجلها المتنفران الى الحكم وكذا بالمفاخرة فيما نهى عنه الدين بعد وهو أكثر ما كان فى هذا الباب فقد صار جل تفاخر المسلمين بالدين والتقوى وما يقدم من صالح الأعمال للأفراد والجماعات الى غير ذلك مما يحض عليه الدين

رابعا — اختلافه فى الأغراض العامة لخطبه ووصاياهم عما كان بعد فقد بقيت الخطب والوصايا فى عهود الاسلام الى وقت طويل ولكن التبديل الكبير للعرب فى الدين والسياسة والمعيشة والاجتماع باين كل المباينة فى هذه الأغراض فئات بعضها كشن الغارات والاخذ بالثأر وحلت الكتابة محل الخطابة فى بعض آخر كالسننارات وتحور بعض ثالث تحورا كبيرا فى بواعثه وما آخذ به كالخض على القتال إذ صار للمتج والجهاد وكالامر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ صارت ما آخذ به من تعاليم الدين وكذا اخطب الاملاك وقاموا بقى غرض على حاله كالدعوة الى السلم

ب — فى الشعر

يمتاز الشعر الجاهلى بعد الذى سبق فى المميزات العامة بما يأتى

أولا — اشتمال كثير منه على بعض الالفاظ الغريبة بالنسبة اليما نحن لا إلى وسطهم هم فان ذلك جاء نتيجة لما أهمل بعد الجاهلية من أغراض كانت كثيرة القصد فيها كوصف الابل وحر الوحش والقسي ونحوها مما كان من

صميم البادية وهجر فهجرت لذلك الالفاظ التي كانت تؤدي بها معانيه وأصبحت ذات غرابة علينا ولو بقيت تلك الاغراض مؤداة لكانت ألفاظها وما نستعمله الآن سواء

ثانياً — جزالة الالفاظ وضخامة التراكيب ذلك بأنهم كانوا على تمام علم ودراية بمفردات لغتهم والمواطن اللائقة باستعمالها ثم كانوا ذوي قدرة وإبابة على التصرف في الاساليب بما يكسبها القوة والمتانة وبخاصة في الاغراض المتطلبة لها كالحماسة والفخر والوعيد والانذار ونحوها أما غيرها مما يقتضى رقة كالنسيب مثلاً فقد كانوا غالباً يتخبرون له من الالفاظ ما فيه عذوبة ومن التراكيب ما هو ذو سلاسة

ثالثاً — اتفاق بدء القصائد في التشبيب الذي لا يعدو الوقوف على الدمن ومخاطبة الاطلال ووصف الظعون والتحرق على بعد المنار ونعت النوق التي ترحل للحاق بالاحباب ثم وصف هؤلاء الراحلين على خلاف بينهم في اطالة بعض هذه الجزئيات أو تقصيرها واستيفائها كلها أو إسقاط بعضها

رابعاً — عدم حسن التخلص من غرض الى غرض في القصيدة الواحدة فقد كان يحدث الانتقال فجأة دون تمهيد أو بتمهيد ضئيل لا يعدو أن يكون لفظة أو اثنتين كدع ذا وعد عن ذا ونحوها وبمثل هذه المتأجاة كان ينتهى القصيد

خامساً — اجادة وصف مظاهر البادية في كل ناحية من نواحيها وتسجيل كثير من أوابد العرب عتائد وعادات. فالشعر الجاهلي وحده يكاد يكون المرجع فيما عرف من هذه الاشياء بخلاف الشعر الاسلامي لبعد رجاله عن البادية سكنا وتغير أحوالهم العامة تغيراً كبيراً يجعلهم اذا عاجلوا ذلك عاجوه عن تكلف منهم

وتقليد لاسلافهم لا يصدر عن شعور ولا ينزع من وجود

سادسا — تصويره للأشياء على حقائقها من غير ما مبالغة بله الغلو
والاغراق اللذين كثيرا بعد وانما جعلهم كذلك أن كانوا على فطرة طبيعية
لا تكلف فيها وعلى جانب من الحرية لا يحد من فكر ولا يقيد في قول ويتضح
هذا جلليا في الوصف كما يتضح في سائر فنون الشعر . فالتغزل لا ينعت محبوبته
بالمستحيل من الصفات ولا يدعى لنفسه اذا نسب الموت في هواها دون موت .
والشجاع المتحمس لا يزعم أنه مزلزل الا أرضين محرك الراسيات . والغفور
لا يجاوز ما لنفسه وقبيله من محامد وتراث . الرائي لا يزعم بموت المرئي ظلام
الوجود واختلال نواميس الحياة . وكذلك المدح والهجاء كان فيهما الاعتدال
إلا إسراف في الاول ولا إنداع في الثاني إلا ما كان آخر العهد لدى بعض
الشعراء ممن اتخذوها وسيلة للتكسب رغبا ورهبا ومع هذا لم يصلوا الى شيء مما
بلغاه بعد في سائر العهود

سابعا — شدة تأثيره في ذلك العهد أكثر من غيره كما بيناه آنفا حقا كان
أم باطلا لان شعور القوم إذ ذاك كان أغلب على عقلمهم شأن ذوى الفطرة
والسذاجة البعيدين عن تثقيف العلم وتقويم الحضارة
وبعد فان فيما سلف من نماذج وغير نماذج لمختارات النثر والشعر لا آيات
بينات على ما ذكرنا من خصائص ومميزات فليرجع اليها في ضرب المثل
والاستشهاد وما توفيق إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب

تابع الفهرس

(اللغة)

٤١

نشأة اللغات وتعددتها	٤٣ — ٤١
اللغات السامية وأصل العربية	٤٦ — ٤٤
طرق نمو العربية وخصائصها	٥٢ — ٤٦
اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها	٦١ — ٥٣
معارف العرب في الجاهلية ومعتقداتها	٦٢

المعارف

٦٣

السماء وكائنات الجو	٦٤ — ٦٢
البيطرة والطب	٦٤ — ٦٤
التاريخ والانساب	٦٥ — ٦٤
القيافة والعيافة	٦٦ — ٦٥
العرافة والكهانة	٦٧ — ٦٦
الخط العربي	٦٨ — ٦٧

المعتقدات

٦٨

الاديان	٦٩ — ٦٨
الاولاد	٧٢ — ٧٠

الادب الجاهلي

٧٣

إن لنا أن نطمئن اليه ندرسه ونرويه	٧٩ — ٧٣
إنا نقول بسبق النثر على الشعر	٨٥ — ٨٠

النثر

٨٦

أقسامه من مرسل ومزدوج ومسجوع ثم أنواعه وهي:-	٨٦ — ٨٦
--	---------

الفهرس

أدب اللغة وتاريخه	٨ — ٣
العرب	٩
موطنها وأقسامه	٩
الحجاز	١٠ — ١٣
اليمن	١٣ — ١٥
العروض	١٥ — ١٥
نجد	١٥ — ١٦
مدن البوادي	١٦ — ١٦
أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها	١٧
أصلها	١٧ — ١٨
القحطانيون	١٩ — ٢٠
العدنانيون	٢٠ — ٢٢
أيامها الكبرى ذوات الاثر في الادب	٢٢
بين نزار ويمن	٢٣ — ٢٤
حروب ربيعة	٢٤ — ٢٧
بين ربيعة وغيرها	٢٧ — ٢٩
بين اللخمين والغسانيين	٢٩ — ٣٠
كحروب قيس	٣٠ — ٣٤
بين قيس وغيرها	٣٤ — ٣٥
أيام ذي قار بين العرب والفرس	٣٥ — ٣٦
أثر تلك الايام في الادب	٣٦ — ٤٠

تابع الفهرس

الحكم والامثال	٩٠ — ٨٦
المفاخرات والمنافرات	٩٦ — ٩٠
الخطب والوصايا	١٠٤ — ٩٦
الشعر	١٠٥
أوليته عامة ولدى العرب خاصة	١٠٩ — ١٠٥
طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه	١٣٢ — ١١٠
تسجيله كثيرا من أحوال العرب	١٤٢ — ١٣٢
تأثيره ومنزلة رجاله	١٤٨ — ١٤٢
طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فهم ثم سبب تسميتها بهذا الاسم	١٥٢ — ١٤٨
منزلة المعلقات من الشعر الجاهلي	١٧٨ — ١٥٢
معلقة امرئ القيس	١٥٦ — ١٥٣
» طرفة	١٦٠ — ١٥٦
» زهير	١٦٣ — ١٦٠
» لبيد	١٦٧ — ١٦٣
» عمرو بن كلثوم	١٧١ — ١٦٧
» عنتره	١٧٤ — ١٧٢
» الحارث بن حلزة	١٧٨ — ١٧٥
مميزات الكلام الجاهلي	١٧٩
المميزات العامة في النثر والشعر	١٨١ — ١٧٩
» الخاصة بكل منهما	١٨٤ — ١٨١

الصواب	الخطـأ	س	ص
ذلك	ذلك ذلك	١٤٠ ١٣	٣
الشرقي	الغربي	٢٢	١٣
قائله	قائله	٢١	٢٤
كصرصرة	كصربير	٨	٤٦
القاف	الفاء	١٢	٤٦
انثنوا	انثوا	١٠	٥٩
النزاري	النزري	٥	٦٧
وله	ولم	٢١	٧٨
يقول	يقولوا	١٥	٨١
النثر	الشعر	٢٢	٨٣
كغصني	كغصن	٩	٩٥
يتعودوا	يتعودا	١٠	٩٨
بعثه	بعث	١٠	١٠٠
عبد المطالب	عبد الملك	١١	١٠٠
لهدي	لهوى	٤	١٠٥
حرصت	صرحت	٨	١٢١
داود	داود	١٩	١٢٨
إذ	إذا	١٣	١٦٦
كأبن	ابن	٧	١٧٧
فكأنهم	فانه منهم وهم	٨	١٧٧
الحقيقة	الحقيقية	١٣	١٨٠